

مَوْسُوعَةُ النَّابُلْسِيِّ لِلْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ

الهجرة النبوية

الدرس (01) : الهجرة إلى الحبشة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

ما معنى المستضعف في هذه الآية ؟

أيها الأخوة، مع درس جديد من دروس فقه السيرة النبوية، وقد وصلنا إلى درس الهجرة إلى الحبشة، وقبل الحديث عن الهجرة لا بد من توضيح، دققوا في هذه الآيات، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾

(سورة النساء الآية: 97)

هل تصدقون أن المستضعف في الأرض إذا لم يهاجر وقع في وعيد رب العالمين، كيف؟ أنت ذهبت إلى بلد من أجل هدف واحد، أن تنال دكتوراه، فإذا منعتك الجامعة من أن تنتسب إليها، هل يمكن أن تبقى في هذا البلد؟ أنت جنتها من أجل هدف واحد، هو أن تنال شهادة عليا، فإذا منعت من أن تنتسب إلى الجامعة لا معنى لبقائك في البلد، لا بد من أن تتحول إلى بلد آخر، هذا مثل.

لو كبرنا المثل، أنت في الدنيا من أجل أن تعبد الله، الدليل:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

(سورة الذاريات الآية: 56)

فإذا حيل بينك وبين أن تعبد الله في أي بلد، لا بد من أن تغادر هذا البلد، قبل أن تغادر إن حاولت أن تصلح وأفلحت لا تغادر، إن استطعت أن تهیی جواً تعبد الله فيه فلا تغادر، إن أقنعت الناس أن يغيروا فلا تغادر، أما إذا استحال عليك أن تعبد الله، وعلّة وجودك في الدنيا أن تعبد الله فلا بد من أن تغادر، الآن نفهم الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾

(سورة النساء الآية: 97)

ما معنى مستضعفين؟ إما أنك ضعيف من حيث القدرة، فمنعت أن تعبد الله، منعت من أن تحجب نساءك، منعت من أن تحجب بناتك، منعت أن تؤدي شعائر دينك، منعت أن تقيم فرائض الله عز وجل، أنت هنا ضعيف، ولم تستطع أن تصلح، ولا أن تغير، إذاً: ينبغي تغادر

المعنى الثاني: بلد فيه حرية، لكن نفسك ضعفت أمام مغريات الحياة، ضعفت أمام الشهوات، لم تستطع أن تقيم أمر الله لا قمعاً بل ضعفاً، هذا ضعف من نوع آخر.

فلذلك حينما تكون في بلد ويحال بينك وبين عبادة الله يجب أن تبحث عن بلد تستطيع أن تعبد الله فيه، وأن تحقق سر وجودك وغاية وجودك، والعلة التي جيء بك إلى الدنيا من أجلها، وهي العبادة.

لماذا أرسل النبي أصحابه إلى الحبشة؟

أيها الأخوة، كان عليه الصلاة والسلام ضعيفاً، ويعاني ما يعاني، ولكن عمه كان يحميه، بينما آحاد المسلمين كانوا معرضين للأذى والتنكيل، والتضييق، والضرب، والإيلام، والنبي عليه الصلاة والسلام كما وصفه الله:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

(سورة الأحزاب الآية: 21)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

(سورة التوبة الآية: 128)

فرحمة النبي ﷺ دعت أصحابه المضطهدين الذين ينكل بهم، الذين يُضربون، الذين تصادر أموالهم، إلى الهجرة إلى الحبشة، ظناً أن فيها ملكاً عادلاً.

أنواع السفر في الإسلام:

بالمناسبة، ما حكم السفر في الإسلام؟ أعلى أنواع السفر من دون استثناء:

السفر الأول: لنشر الدعوة.

السفر الثاني: أن تسافر فراراً بدينك.

السفر الثالث: أن تسافر طلباً للعلم.

السفر الرابع: أن تسافر طلباً للرزق.

والآن هناك سفر اسمه السفر السياحي، هذا حكمه حكم المسافر، فإذا أقام الصلوات الخمس، وغض بصره، ولم يرتكب معصية في هذا السفر فهو مباح ليس غير، أما إذا كان السفر مطية إلى ارتكاب المعاصي والآثام فهذا لا يجوز.

إليكم هجرة المسلمين إلى الحبشة:

كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة في السنة الخامسة من بعثة النبي ﷺ، والذين هاجروا هم أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة، خرجوا متسللين سراً حتى انتهوا إلى الحبشة، منهم الراكب، ومنهم الماشي، وهذا الإسلام الذي تتعمون به اليوم، هذه المساجد، هذه الخطب، هذه الدروس، هذا الأمن الذي يشعر به المسلمون، من دفع ثمنه؟ أصحاب النبي عليهم رضوان الله، دفعوا ثمنه باهظاً، إنسان يسافر من مكة إلى الحبشة مشياً، الحياة شاقة جداً، والحر لا يحتمل، ووفق الله تعالى حينما وصلوا إلى الساحل سفينتين للتجار حملوا هؤلاء الصحابة إلى أرض الحبشة جميعاً بنصف دينار،

((وقد ثبت من طرق صحيحة ما ورد عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، وكانت ضمن من هاجر إلى الحبشة، في الهجرة الأولى، حيث قالت: لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن النبي ﷺ لا يستطيع أن يدفع عنهم هذا الأذى، - وحكمة أنه ضعيف ذكرتها مرتين من أجل تثمين من يؤمن به، ليس عنده شيء يعطيه، ولا قوة تحمي أتباعه، ولا يملك لهم نفعاً ولا ضرراً، فالإيمان به إيمان خالص، لكن لو أن قوياً من أقوياء الأرض ادعى أنه جاءته النبوة، ودعا الناس إلى الإيمان به، والله لتجدن الملايين المملينة تؤمن به خوفاً منه، لا قيمة لهذا الإيمان، أراد الله عز وجل أن يكون إيمان الناس برسول الله ﷺ إيماناً حقيقياً لا رغبة ولا رهبة، لا طمعاً ولا خوفاً، كان عليه الصلاة والسلام في منعة من قومه بني هاشم، ومن عمه أبي طالب، - فقال لهم عليه الصلاة والسلام: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلادته، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه، فخرجنا - كما تقول أم سلمة - فخرجنا إليها إرسالاً حتى اجتمعنا فيها فنزلنا بخير دار إلى خير جار آمنين على ديننا، ولم نخش من هذا الملك ظملاً))

[ورد في الأثر]

وتروي الروايات أن سيدنا عثمان بن عفان كان أول من خرج مهاجراً، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أورد الإمام البخاري حديثاً بسند موصول عن أنس، قال: أبطأ على رسول الله ﷺ خبرهما، يعني خبر وصولهما سالمين إلى الحبشة، فقدمت امرأة، فقالت له: لقد رأيتهما، وقد حمل عثمان امرأته على دابة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط))

[ورد في الأثر]

من معاني الهجرة إلى الله ورسوله:

1- إذا كان المهاجر هدفه خدمة أمته:

إنسان يذهب إلى بلاد الغرب ليدرس، تروق له الحياة، حياة جميلة جداً، بلاد جميلة، حاجات الإنسان مؤمنة، الدخل فلكي، الأمور كلها في خدمة الإنسان، ينسى وطنه، وينسى بلده، وينسى أمته، وينسى أن لحم كتفه من خير وطنه، فهو يسعى لكسب أكبر قدر من المال. هذا الإنسان لو اتخذ قراراً بطولياً أن يعود إلى بلده المسلم، وبلده المسلم ليس بلداً متطوراً، بل هو بلد نامي، ليقدم علمه لهؤلاء المسلمين الذين هم أبناء جلدته، هذا الإنسان أنا أرى أن عودته إلى بلده، وتحمله بعض متاعب بلده في سبيل أن يقدم خدمات جليلة لأمة الإسلامية هذا يعد عند الله مهاجراً.

2- المتمسك بدينه في زمن الهرج هي هجرة إلى رسول الله:

ومعناً آخر للهجرة، أن عبادة في الهرج، في زمن الفتن، وزمن الفسق والفجور، وفي زمن أن يغدو الدين ضعيفاً، وزمن أن الذي يعبد الله كالفقير على الجمر، وزمن النساء الكاسيات العاريات، وزمن يؤتمن الخائن، ويخون الأمين، وزمن يضام الأمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، وزمن يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى، ولا يستطيع أن يقول كلمة، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحوه، وزمن فيه موت كعقاص الغنم، لا يدري القاتل لما يقتل، ولا المقتول فيما قتل، في هذا الزمن الصعب عبادة في الهرج كهجرة إلي. من يعبد الله في آخر الزمان حيث الفتن، والاضطرابات، والضلالات، والشهوات، وكل شيء على خلاف ما هو عليه، في زمن يصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، هذه أيضاً هجرة إلى الله خالصة، لو وسعنا الهجرة أيضاً، قال عليه الصلاة والسلام:

((والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

من النساء اللواتي هاجرن مع أزواجهن إلى الحبشة:

أيها الأخوة، بعد فتح مكة أغلق باب الهجرة،

((لا هجرة بعد فتح مكة))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

الصحابة الكرام الذين هاجروا على رأسهم عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وأبو حذيفة بن عتبة، ومصعب بن عمير، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، وغيرهم، وأما النسوة فهن رقية بنت النبي ﷺ، وسهلة بنت سهل امرأة أبي حذيفة، وأم سلمة بنت أبي أمية امرأة أبي سلمة، وليلى امرأة عامر بن أبي ربيعة، وقد عرفت هذه الهجرة بالهجرة الأولى إلى الحبشة. أرايتم أيها الإخوة إلى العنصر النسائي، كيف أن الصحابييات الجليلات كن يشاركن أزواجهن السراء والضراء، والإقامة والسفر، والحلة والترحال؟

لماذا لم يهاجر الصديق إلى الحبشة؟

أيها الأخوة، وللصديق قصة، ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه أراد أن يلتحق بالمهاجرين إلى الحبشة، في هذه الهجرة الأولى، بعد أن اشتد أذى قريش عليه، وهو سيد كبير في قومه، لكن الباطل أرعن، الباطل لا يعرف أقدار الناس، الباطل لا يميز الصالح من الطالح، فيعد أن اشتد أذى المشركين على سيدنا الصديق سلك طريقاً آخر، تشير الأخبار أنه سار في طريق اليمن، حتى إذا ما بلغ برك الغماد، حتى لقيه ابن الدغنة، وهو سيد قبائل القارة حلفاء بني زهرة القرشية، قال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسبح في الأرض، وأن أعبد ربي، فقال ابن الدغنة: إن مثلك لا يخرج ولا يُخرج، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل))

[ورد في الأثر]

فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وكان الصديق رضي الله عنه أشبه الصحابة برسول الله، وما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر، لذلك أجاره، معنى أجاره أي جعله في ذمته، هذه عادة مطبقة في الحياة الجاهلية، أن إنساناً شريفاً وجيهاً إذا أجار إنساناً لا يستطيع أحد أن ينال منه

أيها الأخوة، لي صديق لا أزكيه، ولكن أحسبه صالحاً وورعاً، وكان موظف بمكان، أمانته ظاهرة، استقامته ظاهرة، ورعه ظاهر، أدبه ظاهر، التزامه ظاهر، سمته حسن، سافر مرة مع من هو أعلى منه في الدائرة، وكان بعيداً عن الدين بعد الأرض عن السماء، ليس عنده شيء محرم، فلما دعوا إلى طعام هذا الذي هو رئيسه في العمل منع أن يأتي إلى الطعام أي مشروب، فلما انتهى الطعام، سأل صديقي رئيسه، قال له: هل انتبهت أننا لم نضع على الطاولة مشروباً؟ قال له: نعم، قال له: هذا من أجلك، لأن دينك أصلي، حتى الفاسق، حتى المبتعد عن الدين إذا رأى مؤمناً، صادقاً، مخلصاً، ورعاً، أميناً، عفيفاً، له مكانة عنده.

فوافقت قريش على ذلك، واشترطت عليه أن تكون عبادته في داره، وألا يستعلم بها، وأن يتعبد ربه في بيته، وبعد مدة أخذ أبو بكر يجتهد بالقراءة في فناء داره، وكان رجلاً بكاء لا يملك دمعه إذا قرأ القرآن، فيجتمع إليه أبناء ونساء المشركين يعجبون بقراءته، وينظرون إليه، ويستمعون القرآن مما أفرع قريشاً، ودفعها إلى مطالبة ابن الدغنة أن يكفه عن ذلك، فخيرته ابن الدغنة بين الإسرار بعبادته، أو أن يرد عليه جواره، فرد أبو بكر عليه جواره، وقال: إني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله، وهكذا بقي أبو بكر بمكة إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجيراً بالله سبحانه وتعالى، يحتمل أذى المشركين بعد أن كان النبي ﷺ قد أذن له بالهجرة. دققوا في هذا النص:

((ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هويماً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، وما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيدوه أهل السماء والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً))

[ورد في الأثر]

الإشاعة التي أخبر بها المسلمون في الحبشة عن أهل مكة:

أيها الأخوة، بعد هجرة الحبشة الأولى لفترة قليلة حدث أن صلى رسول الله ﷺ في المسجد الحرام، قرأ سورة النجم، وسجد في موضع السجود، فسجد معه كل من كان يسمعه من المسلمين ومن غير المسلمين، ماذا تستنبطون؟ المؤمن له وهج منور، المؤمن عليه سكينه، المؤمن عليه وقار، حتى الذي لا يعرفه يهابه، حتى الذي لا يعرفه يسعد بقربه.

وشاع في مكة أن قريشاً قد أسلمت، وبلغ المسلمين الذين هم في أرض الحبشة أن مكة أسلمت فرجع ناس منهم، منهم عثمان بن مظعون، فلم يجدوا ما أخبروا به صحيحاً، فرجعوا، وسار معهم جماعة إلى الحبشة، وهي الهجرة الثانية، وقد ذكرت إحدى الروايات الصحيحة أنهم كانوا اثنين وثمانين رجلاً، سوى نسائهم وأبنائهم، وقيل: إن عدد النسوة في الهجرة الثانية كن ثمانين امرأة.

إليك مضمون الرسالة التي حملها وفد قريش إلى النجاشي:

أيها الأخوة، هذه الهجرة الأولى والثانية، قريش ألمها جداً أن يذهب المسلمون، ويتخلصوا من تعذيب قريش، ومن التنكيل بهم، ومن التضييق عليهم، ومن إيدائهم، وعاشوا في بلاد الحبشة في ظل ملك الحبشة النجاشي أمين مطمئنين، فكادوا لهم.

أيها الأخوة، نية الكافر شر من عمله، كل الذي يفعله يتمنى أن يفعل أكبر منه، نية المؤمن خير من عمله، لذلك بادرت قريش بعد الهجرة الثانية، وبعد إخفاقها في منع المسلمين من الهجرة، ونتيجة تخوفها من انتشار الدعوة الإسلامية أرسلت وفداً مؤلفاً من عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، هذا الوفد معه هدايا ثمينة إلى النجاشي، وإلى بطاركته بهدف أن يعيد لهم هؤلاء المهاجرين، لينكلوا بهم، ويعيدوهم إلى مكة، وحاول الوفد إقناع البطاركة عن طريق الهدايا، الإنسان أحياناً يقنع بالشيء، لا لأنه قانع به، ولكن لأن المبلغ كبير، المبلغ أفتعه، فهؤلاء عرفوا ضعف الإنسان، فتوسلوا إلى أن يجعلوا من البطاركة قوة ضاغطة على النجاشي كي يعيد إليهم هؤلاء، فأغروهم بهدايا ثمينة.

شيء آخر، صور هؤلاء المسلمون على أنهم غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دين النجاشي، وأنهم جاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وبيتوا الأمر مع البطاركة على أن يشيروا على النجاشي بأي يسلمهم إليهم، ولا يكلمهم، آية قرآنية طبعاً وردت على لسان سيدنا سليمان:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

(سورة النمل الآية: 27)

هل حقق النجاشي في الأمر، وماذا كانت النتيجة؟

النجاشي رأى أن يتحرى الأمر بنفسه، فدعا المسلمين، وطلب منهم توضيح الحقيقة، فأنبرى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وتكلم نيابة عن أخوانه المهاجرين كما أسلفنا، قائلاً:

((أيها الملك، كنا قوماً على الشرك نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض، في سفك الدماء وغيرها، ولا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا، نعرف وفاءه، وصدقه، وأمانته، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه أحمد عن أم سلمة في مسنده]

والله كلام رائع، فالنجاشي طلب من جعفر أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به محمد ﷺ، فقرأ عليه أوائل سورة مريم، فبكى النجاشي، وبكى معه أساقفته، وقال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى، انطلقوا راشدين آمنين في بلدي، وأقسم بالألا أسلمكم لأحد.

أخوانا الكرام، أتمنى عليكم جميعاً إذا كنت في موضع القيادة، ولو قيادة بيت، جاءتك ابنتك تشكو زوجها، تقبل كلامها على علاته، هذا الصهر اسأله، اطلبه على الهاتف، ما الذي أزعجك من ابنتي؟ لم تكن منصفاً؟ لم تأخذ كلام ابنتك على أنه منزل؟

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

(سورة النمل الآية: 27)

نحن نتوهم أن القاضي الذي في قصر العدل، لا، الأب قاض بين أولاده، الأب قاض بين بناته، الأب قاض بين أصهاره، الأب قاض بين أخوته، معظم الناس مكلفون أن يحكموا بين متخاصمين، قال تعالى:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

(سورة النمل الآية: 27)

ماذا فعل عمرو بن العاص حينما وافق النجاشي كلام جعفر؟

لكن هذه المحاولة أخفقت، لذلك في اليوم التالي جاء عمرو بن العاص، وقال للملك: إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فاستدعاهم النجاشي، فسألهم، فقال جعفر: نقول فيه: هو عبد الله ورسوله، وكلمته، وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول، واستقر رأي النجاشي على منح المسلمين الأمان، فأقاموا في خير دار مع خير جار، أما القسيسين والرهبان الذين سمعوا قول جعفر، واستمعوا إليه، وهو يرتل القرآن فقد ذرفوا الدموع مما عرفوا من الحق، فأنزل الله تعالى قوله الكريم:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

(سورة المائدة الآية: 82-83)

المدة التي مكث فيها المسلمون في الحبشة:

أيها الأخوة، مكث أصحاب النبي ﷺ في الحبشة ما شاء لهم، ولقد توفي عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، وليس لها أحد، فتكريماً لها خطبها النبي ﷺ لنفسه، وتزوجها، وهي بالحبشة، من الذي زوجه إياها؟ النجاشي، ومهرها 4000 دينار، ثم جهزها من عنده، ولم يرسل إليها النبي بشيء، وقد بعثها النجاشي مع شرحبيل بن حسنة.

أخوانا الكرام، مرة جاء وفد النجاشي إلى النبي ﷺ، من كرم أخلاق النبي أبي إلا أن يخدمهم بنفسه، وكان وفاؤه مضرب المثل.

القرائن والأدلة التي تفيد في إسلام النجاشي:

أيها الأخوة، وردت العديد من الدلائل التي تفيد إسلام النجاشي، فقد ورد في الأخبار أنه أسلم، ولذلك خرج عليه قومه، ولكنه حرص قبل محاربتهم أن يؤمن للمسلمين سفناً ليغادروا عليها إذا ما تعرض للهزيمة، وأنه كتب كتاباً يشهد بإسلامه، وقد أورد الشيخان أن النبي ﷺ نعى بنفسه النجاشي، في اليوم الذي مات فيه، في العام التاسع للهجرة، وأنه صلى بالمسلمين عليه صلاة الغائب.

والحمد لله رب العالمين

الدرس (02) : المفاهيم العامة للهجرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس فقه السيرة النبوية، وقد وصلنا في دروس سابقة بعد بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية إلى الهجرة، ونحن على مشارف ذكرى الهجرة.

مفاهيم الهجرة في الإسلام

المفهوم الأول: الهجرة حركة

بادئ ذي بدء، الهجرة حركة، وليست سكوناً، لذلك الإسلام حركي، وليس الإسلام سكونياً، أي أنك استمعت، وأعجبت، وأثنت، ومدحت، وقدرت، وأكبرت، ولم تفعل شيئاً فأنت لست على شيء.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾

(سورة المائدة الآية: 68).

ويا أيها المسلمون، لستم على شيء حتى تقيموا أحكام القرآن في حياتكم، الإسلام حركة، سلوك، التزام، عطاء، صلة، مجاهدة، فإذا بقي الإنسان معجباً بالإسلام إعجاباً نظرياً، أو إعجاباً سكونياً، أو إعجاباً لا يسير عملاً، هذا فالإنسان أبعد شيء عن حقيقة هذا الدين.

كان من الممكن أن يستمر الإسلام في مكة المكرمة بترتيب إلهي، أن يخضع أهل مكة إلى النبي، ويبقى النبي في مكة، ولكن لماذا شاءت حكمة الله أن تشتد المعارضة في مكة، وأن يبالغ القرشيون في التنكيل بأصحاب النبي، وأن يبدو الطريق مسدوداً للدعوة في مكة، عندها كانت الهجرة.

هذا الدرس بليغ، ما لم تتحرك، ما لم تلتزم، لك حرفة لا ترضي الله ينبغي أن تتركها، لك سلوك لا يرضي الله ينبغي أن تتوب منه، لك علاقة مشبوهة ينبغي أن تقطعها، اعتقدت أن العلاقة مع هذا الإنسان تنفك مع الله ينبغي أن تقيمها، أما أن تبقى ساكناً، وهذا من أصعب ما يواجه المسلمون به اليوم أعداءهم، سكون، انتظار، ماذا يفعل بنا؟ دون حركة، دون سعي، دون تفكير في المستقبل، لذلك المفهوم الأول للهجرة يعني الحركة، المسلم كائن متحرك، وليس كائناً ساكناً، والإنسان يميل إلى السكون، والقعود، والاستسلام ويندب حظه، ويندب أعداءه، ويندب الظروف الصعبة التي يمر بها، ليس هذا من الإسلام في شيء.

النبي عليه الصلاة والسلام واجه أعتى أنواع الظلم، والكفر، والاضطهاد، والتكيل أصحابه يعذبون أمامه، ولا يملك شيئاً، يقول: صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة.

المفهوم الثاني: هجرة المعاصي

أيها الإخوة، أوسع معنى للهجرة أنها حركة، والإسلام حركة، وفي معنى واسع آخر ذكره النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

((وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

[رواه البخاري وأبو داود والنسائي عن ابن عمرو]

أنت مهاجر، بعد ما أغلق باب الهجرة من مكة إلى المدينة هو في الحقيقة مفتوح بين كل مدينتين يشبهان مكة والمدينة، أما الهجرة بالذات من مكة إلى المدينة فأغلق بابها، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

لكن بين أي مدينتين تشبهان مكة والمدينة الهجرة قائمة بينهما.

المعنى الثاني الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام الذي يوسع معنى الهجرة الضيق:

((وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

تركت هذه الحرفة التي بُنيت على معصية، فأنت مهاجر تركت هذه السهرة التي فيها اختلاط فأنت مهاجر، تركت هذه العلاقة التجارية التي فيها شبهة فأنت مهاجر تركت إيداع المال في مؤسسة ربوية، وأخذت رأس مالك فأنت مهاجر

((وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

أعطى النبي عليه الصلاة والسلام مفهوماً ثالثاً للهجرة، الأول حركة:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾

(سورة الأنفال الآية: 72)

أول مفهوم حركي.

المفهوم الثاني: أن تترك ما نهى الله عنه فأنت مهاجر .

المفهوم الثالث: هجرة المعاصي

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ))

[رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

أي في زمن الفتن، في زمن النساء الكاسيات العاريات، المائلات المميلات، في زمن الفضائيات، في زمن الإنترنت، في زمن أن يعم الفسق والفجور أهل الأرض، في زمن أن يصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، في زمن لا يأمر الناس فيه بالمعروف، ولا ينهاه عن المنكر، في زمن أن يأمر الناس بالمنكر، وينهون عن المعروف، في زمن أن يصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، في زمن أن تضع الأمانة، وأن يكذب الصادق، وأن يصدق الكاذب، وأن:

((يَكُونُ الْوَلَدُ غَيْظًا، وَالْمَطْرُ قَيْظًا، وَتَفِيضُ النَّوَامِ فَيْضًا، وَتَغْيِضُ الْكِرَامِ غَيْضًا))

[رواه الخرائطي من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن مسعود]

في زمن يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحوه، في زمن موت كعقاص الغنم لا يدري القاتل لم يقتل؟ المقتول فيم قتل، تطهير عرقي، في زمن التناقضات، في زمن أن تحتقر الأمة ربّتها التي ربّتها، تقول: أمة دقة قديمة، هي مثقفة، في زمن أن يوسد الأمر لغير أهله، في زمن أن ترتكب المعصية على قارعة الطريق، في زمن أن يكون الفجار هم عليّة القوم، في هذا الزمن:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ))

إذا عبدت الله في زمن الفتن، في زمن أن يمس الناس غبار الربا، في زمن أن يُكذب الصادق، ويصدق الكاذب، فهذه العبادة بنص الحديث الصحيح القدس:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرَجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ))

أول مفهوم: الحركة.

المفهوم الثاني: أن تدع ما نهى الله عنه.

المفهوم الثالث: أن تعبد الله في زمن الفتن.

توقيت الهجرة بالمفهوم العام

ولكن متى ينبغي أن تهجر؟ ومتى ينبغي ألا تهجر، أنا أتكلم عن الهجرة بالمفهوم الواسع. أضرب مثلاً: أرسلت ببعثة إلى بلد غربي لتتال الدكتوراه، من جامعة بالذات، إذا مُنعت من دخول هذه الجامعة، وقرار إيفادك ينص على هذه الجامعة، ولم يسمح لك بالانتساب إلى هذه الجامعة أيعقل أن تبقى في هذا البلد؟ الجواب: لا، علة وجودي الوحيدة في هذا البلد أن أنتسب لهذه الجامعة، وأن أنال الدكتوراه، فإذا مُنعت من أن أنتسب إليها فلا معنى للبقاء في هذا البلد، هذا المثل.

التطبيق: هل يعلم الأخ المؤمن ما علة وجوده في الأرض؟ أن يعبد الله.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(سورة الذاريات)

سبب الهجرة العامة ودليلها

أن يعبد الله بالمفهوم الواسع، طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، فإذا كنت في مكان، وحيل بينك وبين أن تعبد الله، وحيل بينك وبين أن تحقق علة وجودك في هذا المكان، هل تبقى في هذا المكان؟ إن كان في الإمكان أن تعبد الله في مكان فابق فيه، وإذا كان في الإمكان أن تصلح هذا المكان ليتاح أن تعبد الله فيه فابق في هذا المكان، أما إذا مُنعت أن تعبد الله، وأنت لا تستطيع أن تفعل شيئاً في هذا المكان فعليك أن تغادر هذا المكان إلى مكان تعبد الله فيه، هذا كلام، ما الدليل؟ لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، الدليل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾

(سورة النساء الآية: 97)

معنى الاستضعاف في الأرض

المعنى الأول: عدم الاستطاعة لعبادة الله

ما معنى مستضعفين؟ أي لا نستطيع أن نفعل شيئاً وفق اختيارنا، لا نستطيع أن نعبد الله، لا نستطيع أن نؤدي شعائر الإسلام، لا نستطيع أن نصلي، لا نستطيع أن نحج نساءنا، لا نستطيع أن نفعل شيئاً يرضي ربنا،

﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾

يعني كان الذي يتولى الأمر يمنع الناس أن يحققوا شعائر دينهم.

المعنى الثاني: الضعف أمام الشهوات

هناك معنى آخر:

﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾

أي: ضعفنا في مكان ما أمام الشهوات، أمامي كأس من الماء شربت من رشفة، قلت: هذا العمل في بلاد المسلمين بم يقيم؟ هل يعدّ الذي شرب الماء قد ارتكب منكراً؟ لا يعدّ منكراً أبداً، هذا الماء ماء عذب زلال أنزل الله من السماء، فاخترن في الأرض، وظهر ينبوع، وشربنا منه، والناس شركاء في ثلاث، في الماء، والإنسان خلق فيه، أو خلقت فيه حاجة إلى الماء.

أقسمت إلى أحد الإخوة الكرام البارحة أن الزنا في بلاد الغرب كشرية الماء تماماً، ويستحيل أن تجد فتاة عذراء هناك، بل إن الفتاة العذراء متهمة في عقلها، فإذا كان الإنسان في بلد كهذا البلد المعاصي ترتكب على قارعة الطريق، وفي الحدائق، وأمام الناس، ترتكب الفاحشة العظمى في الطريق فليهاجر.

كنت أضرب على هذا بعض الأمثلة:

إن شاباً أعجبه فتاة هناك فاستأذن والده بالزواج منها، والأب كان زير نساء، هذا مصطلح معروف، قال: لا يا بني، إنها أختك، وأمك لا تدري، فأحجم عنها، ثم أعجبه فتاة ثانية، فاستأذن والده، قال: لا يا بني، إنها أختك أيضاً، وأمك لا تدري، أعجبه فتاة ثالثة، فقال: لا يا بني، إنها أختك أيضاً، وأمك لا تدري، هذا الشاب ضجر فأخبر والدته، قالت له: خذ أين شئت، فأنت لست ابنه، وهو لا يدري، هكذا.

فإذا كنت في هذا البلد، في بلد غربي ترتكب فيه الفواحش على قارعة الطريق وضعفت أمام شهواتك، هذا الضعف من نوع آخر، هناك ضعف قمع، وضعف غلبة، غلبتك شهواتك، فإذا كنت في بلد ضعفت أمام شهواتك، ولأن الشهوات مستعرة، وسبيلها ميسرة أيضاً فهاجر من هذا البلد، متى أهاجر؟ إذا كنت مستضعفاً.

الاستضعاف الأول: أن أُمِنَ من تأدية شعائر الإسلام، نحن في فضل كبير، والحق يقال: المساجد ممتلئة، وعامرة بالمصلين، ولك أن تفعل كل ما يأمرك به الدين، ولك أن تحجب فتياتك، ونساءك. نحن في بلد تكلم عنه النبي ﷺ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((بَيْنَا أَنَا فِي مَنَامِي أُنْتَنِي الْمَلَائِكَةُ، فَحَمَلْتُ عَمُودَ الْكِتَابِ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتِي، فَعَمَدَتْ بِهِ إِلَيَّ الشَّامُ إِلَّا، فَأَلِيمَانُ حَيْثُ تَفَعُّ الْفِتْنُ بِالشَّامِ))

[أحمد]

((طوبى لمن له فيها مريض شاة))

كحجم هذه الطاولة،

((طوبى لمن له فيها مريض شاة، الداخل إليها فبرضاني، والخارج منها بسخطي))

[ورد في الأثر]

هناك أحاديث صحيحة في الترغيب والترهيب عن النبي ﷺ تبين فضل السكنى بالشام، ذكرت هذا من أجل أهمس من أذان من اغتربوا، وأقاموا في بلاد الغرب، وضعفوا أمام أولادهم، حيث لا تستطيع إذا رأيت مع ابنتك في غرفتها الخاصة شاباً في فراشها، إذا غضبت فأنت لست حضارياً، أنت لست مهذباً، لأن هذا الذي ينام معها جاء بطلب منها، هو مدعو، وأنت إنسان همجي حينما ترى ابنتك تحتضن شاباً في غرفتها أو هي في المدرسة ففتنهاها عن ذلك، لذلك تؤخذ إلى دوائر الشرطة كي توقع تعهداً ألا تغضب مرة ثانية إذا رأيت شاباً مع ابنتك، في مثل هذه البلاد لا يعاش فيها، لذلك:

((من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة))

[رواه الطبراني في الكبير والبيهقي في السنن عن جرير]

لي طالب أقام في بلد بعيد ادعت زوجته التي هي حلاله، أنه التقى بها وهي ليست راضية فحكم عليه بسنتين سجنًا، هذا اسمه بالقانون الغربي اغتصاب الزوجة، وزوجته وهو بحاجة إليها حلاله،

((من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة))

لأن عندهم الزواج عقد بين شخصين، لا بين ذكر وأنثى، قد يكون العقد بين رجلين، أو بين امرأتين، أو بين رجل وامرأة، والإجهاض مسموح به، والزوجة ليست مطالبة أن تتابع زوجها، لها أن تسكن في مكان آخر، وهذا حديث يطول عن مؤتمر السكان، وعن توصيات مؤتمر السكان، وعمما يفرض على العالم الإسلامي من إباحيات مؤتمر السكان.

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾

(سورة النساء الآية: 97)

﴿ فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾

كم نوعاً من الضعف؟ ضعف قمع، وضعف غلبة شهوة، فمثل هاتين الحالتين إذا كنت ترجو الله والدار الآخرة ينبغي أن تهجر إلى بلاد المسلمين، إلى بلاد تؤدي فيه الصلوات بحرية، إلى بلاد تستطيع أن تحجب بناتك. أيها الإخوة الكرام، هذه علة الهجرة، لكن المشكلة أن هؤلاء المسلمين الذين أقاموا في بلاد الغرب وجدوا الحياة هناك طرية، والعيش رغيداً، والحاجات موفرة، وفي حريات، وفي إباحية والإنسان فيما يبدو له حقوق كثيرة جداً محققة هناك، فآثروا دنياهم على آخرتهم، لذلك لا توازن بين دولة متقدمة جداً، وبين بلد إسلامي متخلف، ووازن بين الدنيا والآخرة.

في رمضان كنت مدعواً إلى طعام الإفطار فجلس إلى جانبي رجل عرّفني عن نفسه بأنه رائد فضائي سوري، ركب مركبة فضائية وصل إلى منطقة انعدام الوزن بين الأرض والقمر، قلت له: هذا الجنين الذي في بطن أمه حجمه بعد أن يبلغ الابن تسعة أشهر 750 سم مكعباً، وهو جالس في مكان مرتاحاً، هناك سائل أمينوسي، يحقق له الدفاع والراحة، طعامه وافر، ليس عنده مشكلة، حينما يعلم أنه سيخرج يتألم أشد الألم، لكن غاب عنه أنه سيخرج من ضيق الرحم، إلى سعة الدنيا، سوريا وحدها فيها ساحل، وفيها شمال، وفيها جنوب، وفيها شرق، وفيها بادية، أليس كذلك؟ وفي بلاد أوروبا، وفي بلاد أمريكا، وفي بلاد آسيا، إفريقيا، أقيوسيا، استراليا، وفي ريادة فضاء.

في الأثر:

((ينتقل المؤمن من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا))

فهذا الذي آثر الدنيا ما عرف الآخرة، وقد خسر أكبر خسارة.

أعظم خسارة تتحقق أن تخسر الآخرة، فهذا الذي آثر الدنيا على الآخرة ما عرف قيمة الآخرة، لذلك يقول:

﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ * يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ *
ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّاتِي ﴾

(سورة الفجر)

فهذا الذي استمرأ الحياة في بلاد يعصى الله فيها على قارة الطريق، ويضعف الإنسان أمام شهواته هناك، هذا الذي فعل ذلك خسر الآخرة، فلذلك الهجرة جزء لا يتجزأ من الدين.

مفومات الهجرة الضيقة وتطبيقاتها

أيها الإخوة، لو وصلنا إلى مفوماتها الضيقة: قد تكون في حرفة لا ترضي الله يقتضي مفهوم الهجرة أن ندعها إلى حرفة ترضي الله.

حدثني أخ قال لي: في رمضان الماضي وأنا راكب مركبتي متجهًا إلى أحد المساجد لأداء صلاة التراويح، استوقفه شرطي لمخالفة، قال لي: أعطيته خمسين ليرة فرفضها، توهمت أنه لم تعجبه، أعطيته مئة ليرة، قال له: لا تحاول، أنا تائب إلى الله، ولن آخذ منك قرشاً واحداً، قال له: انظر إلى يدي، أنا أنقل الرمل مساء لئلا آخذ درهماً حراماً، هذا الشرطي مهاجر، أليس كذلك؟ والقصة لها تنمة رائعة، فهذا الإنسان عنده معمل ألبسة درجة أولى أعجب بتوبة هذا الشرطي فأخذه إلى معمله وكسا أهله جميعاً بأحدث الألبسة، هذا شرطي مهاجر.

لما تنتقل فجأة في وضع فيه معصية إلى وضع في طاعة فأنت مهاجر عند الله، سهرة لا ترضي الله، فيها لعب نرد، وفيها غناء، فيها مقاهٍ، فيها نساء كاسيات عاريات، والسهرة عمرها عشر سنوات، بعد أن عرفت الله أنا أعتذر، أنا لا أجلس في مثل هذه الجلسات، أنت مهاجر.

لك حرفة مبنية على معصية غيرها.

حدثني أخ قال لي: عندي مطعم، من خمس وعشرين سنة مسموح فيه الخمر، قال لي: والله أرباحي فلكية، أنا متعاقد مع 18 شركة أجنبية، والأسعار عشرة أمثال، لكن فيه خمر، تاب إلى الله، بعد أن تاب إلى الله هبط الدخل إلى واحد من عشرين، لأن 18 شركة ألغوا العقد معه باعتبار إلغاء الخمر، لأنهم أجنب، صاحب هذا المطعم ما تصنيفه عند الله؟ مهاجر، هذا هجر المنكر.

امرأة سافرة، ولها مكانة اجتماعية، فلما عرفت أن الحجاب جزء من الدين تحجبت، وقطعت كل علاقاتها مع من كنّ على شاكلتها فهي مهاجرة.

((المهاجر من هجر ما نهى الله عنه))

إنّ ثيابك، أو في بيتك، أو في علاقاتك، أو في حرفتك، أو في عملك.
قال لي أخ: أنا منعم عليّ والحمد لله، وأسافر دائماً بالدرجة الأولى، أنا مرة دعيتُ لمؤتمر، طبعاً الداعي أمير الخليج، بالدرجة الأولى، قرأت بطاقة الطائرة 50 ألفاً، 25 ألفاً زيادة على الضعف، يضعون معطفك في مكان، هناك كأس عصير، وهناك بعض المجلات الزائدة، وثمة أخوان لنا كرماء، بعد أن عرفوا الله ألغوا الدرجة الأولى من حياتهم، لأنّ الزيادة في هذا المال الفقراء أولى بها، السفر كله ساعة مثلاً أو ساعتين فأوقف الدرجة الأولى، هذا مهاجر، اركب طائرة ولا مانع، وحقّق أعمالك، لكن لا داعي أن تدفع الضعف من أجل أشياء بسيطة جداً، والناس في أمسّ الحاجة لهذا المبلغ.
لو أردت أن أسرد عليكم أنواع من الهجرة لا تعد ولا تحصى، لمجرد أن تنتقل من موقع إلى موقع، من حرفة إلى حرفة، من علاقة إلى علاقة، من نمط إلى نمط، من سلوك إلى سلوك، من مكان إلى مكان.
أحد الإخوة الكرام حج بيت الله الحرام، لشدة ما امتن الله عليه بحالة مسعدة عاهد الله ألا يغادر بلده إلا إلى الحرمين الشريفين، هذا أيضاً مهاجر،

((والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه))

أردت بهذا الدرس أيها الإخوة أن يكون حول مفهومات الهجرة، ونحن على مشارف ذكرى الهجرة. لماذا اختار سيدنا عمر رضي الله عنه التاريخ الهجري ليبدأ من هجرة النبي؟ الهجرة حركة، لذلك أعيد عليكم هذه الآية:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾

الضعف نوعان: ضعف قمع، وضعف خضوع للشهوة.

﴿ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

هل هناك وعيد أشد من هذا الوعيد؟

كنت في مؤتمر في لوس أنجلوس، وعقب إلقاء المحاضرة قالت لي امرأة محجبة هذه الكلمة، قالت لي: أنا فلانة أخت فلان، فلان صديقي الحميم في الشام، قلت لها: أهلاً وسهلاً فبكت فوراً، خير إن شاء الله، قالت لي: ابني ملحد، وابنتي راقصة، هذا ثمن الإقامة هناك.

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾

لذلك الوعيد.

﴿ فَأُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

أيها الإخوة الكرام، قضية الهجرة تدخل في حياتنا اليومية، في بعض الحرف التي لا ترضي الله، في بعض البيوت في أماكن لا ترضي الله، حولك طبقة من المجتمع المخملي، نساءهم كاسيات عاريات، مع الاستمرار بهذه المنطقة يأتيك ضغط من بناتك عليك كي يقلدن ما يرين بأعينهن، فيجب أن تغادر إلى مكان محافظ.

الهجرة حركة أيها الإخوة، الهجرة موقف، لكن أخطر شيء بالموضوع:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾

أسوق لهذه الآية هذا المثل:

أنت مهما كنت متعمقاً بالدين، ومهما عظمت هذا الشرع العظيم، ومهما أثبتت على هذا القرآن العظيم، ومهما اعتزرت بهذا الدين القويم، إن لم تطبقه فلا قيمة لك عند الله أبداً، تماماً كما لو أن إنساناً يعاني من مرض جلدي، وعلاجه الوحيد التعرض لأشعة الشمس، وهو قابع في غرفة مظلمة قميئة، لا ترى ضوء الشمس، وهو فصيح اللسان يتحدث عن الشمس، وعن قيمتها، وعن أشعتها، وعن نصاعتها، وعن تألقها في كبد السماء، وعن أنها شمس عظيمة، كل هذا الكلام لا يقدم ولا يؤخر، ما لم يتعرض لأشعة الشمس.

لذلك القرآن الكريم بأية واحدة لخصت القرآن كله، أين الآية ؟

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى ﴾

الآن تلخيص القرآن:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

(سورة الكهف)

إن أردت لقاء الله عز وجل بالمعنى الواسع، إن أردت أن تتصل به، إن أردت أن يتجلى على قلبك، إن أردت أن تكون محظياً عنده، إن أردت أن تكون في مقعد صدق عنده، إن أردت السلامة والنجاة:

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

هناك جانب عقدي، وجانب سلوكي، العقدي:

﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

والجانب السلوكي:

﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾

إذًا: الإسلام حركة، ونحن في عيد الهجرة، ونحن في مفهوم الهجرة، أوسع مفهوم الحركة، يليه أن تدع ما نهى الله عنه، يليه أن تعبد الله في زمن الفتن،

((العباداة في الهرج كهجرة إلی))

والهجرة بين مكة والمدينة أغلقت لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ))

بينما الهجرة من أي مدينتين تشبهان مكة والمدينة قائمة إلى يوم القيامة، والمستضعف ينبغي أن يهاجر، أي الذي مُنِع من أداء شعائره الدينية، أو ضعفت نفسه أمام الشهوات المستعرة في تلك البلاد، والعقاب جهنم،

﴿ فَأُولَٰئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

الوعيد مخيف، لأنك حينما لا تستطيع تحقيق علة وجودك ببقائك في هذا البلد أو في بلد لا تستطيع أن تؤدي به شعائر الله، ولا أن تقيم أمره، أو أن تضعف أمام شهواتك هذا بلد يلغي آخرتك، والإنسان كما ترون وكما تسمعون في قبضة الله، بثانية واحدة انتهى أحد زعماء إسرائيل، ثانية واحدة، خثرة بالدماع، والناس جميعاً يدعون له بطول البقاء ثانية، هذا الذي يؤثر الدنيا على الآخرة، إنسان غبي أحمق،

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع أحداث الهجرة، وأسبابها، وبعض الوقائع التي كانت بها.

والحمد لله رب العالمين

الدرس (03) : تفاصيل الهجرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس فقه السيرة النبوية، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى موضوع الهجرة، وكان الحديث عن مفهومات الهجرة:

الهجرة حركة، والهجرة ترك ما نهى الله عنه، والهجرة قائمة بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة. عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَجْرَةِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ))

[رواه مسلم].

وكان الحديث المطول حول قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

(سورة النساء).

الآن ندخل في التفاصيل.

اختيار يثرب مكاناً للهجرة

في هذا الدرس الثاني للهجرة، الآن لم يكن اختيار يثرب داراً للهجرة مما اقتضته الظروف ظروف الدعوة فقط، إنما كان ذلك بوحى من الله سبحانه وتعالى.

التعليق: إن كل حدث وقع في عهد النبي ﷺ كان من قبل العناية الإلهية مقصوداً لذاته، لأن السنة النبوية المطهرة هي أقواله، وأفعاله، وإقراره، أفعاله كما يقول بعض العلماء: أبلغ في الدالة على معرفته بالله، وفهمه لكلامه من أقواله، لماذا؟ لأن القول يحتمل التأويل، بينما الفعل حدّي، إذاً كل أفعاله كانت تشريعاً، النبي وحده، ولا أحد سواه أقواله تشريع، وأفعاله تشريع، وسكوته تشريع، وصفاته تشريع.

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

(سورة الحشر الآية: 7) .

﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾

(سورة النساء الآية: 80)

ولأن أمر الله تعالى واضح جلي، قطعي الثبوت والدلالة في وجوب طاعة رسول الله، في أقواله، وأفعاله، وإقراره، إذا ينبغي أن تكون أفعاله معصومة عن الخطأ لأنه مشرع.

رؤية النبي يثرب في المنام

إذاً يجب أن نأخذ أحداث السيرة النبوية على أنها أحداث أرادها الله عز وجل لعبرة بالغة ليوقف النبي e منها الموقف الكامل، عندئذ يكون هذا الموقف تشريعاً، الله عز وجل هو الذي اختار يثرب، فقد ورد في حديث عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ:

((إني أريث دار هجرتكم ذات نخل بين لابتَيْنِ، وهما الحرتان))

[البخاري عن عائشة]

((إني أريث))

ورؤيا الأنبياء حق، ورؤيا الأنبياء أمر.

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾

(سورة الصافات الآية: 102)

رؤيا الأنبياء أمر، والله عز وجل هو الذي اختار يثرب لتكون داراً للهجرة، لذلك ورد في بعض الآثار عن رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ حينما خرج من مكة مهاجراً، قال:

((اللهم ! إنك أخرجتني من أحب البلاد إلي فأسكني أحب البلاد إليك))

[رواه الحاكم عن أبي هريرة]

فكانت المدينة المنورة، لذلك الذين يزرون مكة والمدينة يؤكدون أن الجو العام في مكة جو إجلال، بينما الجو العام في المدينة جو جمال، روحانية النبي مهيمنة على هذه المدينة النبوية، إذًا:

((إني أريث دار هجرتكم ذات نخل بين لابتَيْنِ، وهما الحرتان))

وفي حديث آخر:

((رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ، أَوْ هَجَرْتُ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يُتْرَبُ))

[البخاري عن أبي موسى]

من أسباب الهجرة

إن أسباب الهجرة لا تخفى على أحد، حيث كان الابتلاء والاضطهاد سبب هجرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الله إلى المدينة التي اختارها الله، والحقيقة أن المدينة وظيفتها الأولى في الهجرة تأمين ملاذ آمن للدعوة، لذلك المكان أو أي مكان يحول بينك وبين عبادة الله ينبغي أن تغادره، لأن علة وجودك أن تعبد الله، وإذا قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

أي أن باب الهجرة أغلق بين مكة والمدينة بعد الفتح، لكن الحقيقة أن الهجرة قائمة ومفتحة أبوابها على مصاريعها بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة.

وقد بينت في درس سابق أن الإنسان إذا كان ضعيفاً ضعف قمع على أن يعبد الله ينبغي أن يهاجر، وإن كان ضعيفاً ضعف غلبة على أن يعبد الله فينبغي أن يهاجر، إما أن يضعف أمام قوى الشر، وإما أن يضعف أمام الشهوات، إذ سبب الهجرة توفير مكان آمن للدعوة، ولعبادة الله ﷺ هدف الهجرة، والسبب اضطهاد المؤمنين والصحابة الكرام في مكة.

كان المؤمنون قبل الهجرة يفرّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى، وبالمناسبة السفر مشروع لأهداف متعددة، يقع في أعلاها الجهاد في سبيل الله، وبعد الجهاد يقع الفرار بالدين، وبعد الفرار في الدين يقع الدعوة إلى الله، ثم يقع التماس الرزق، فبين أن يهاجر المرء أو أن يسافر ليجاهد في سبيل الله، أو ليفر في دينه، أو ليطلب العلم، أو ليتمس الرزق، هذه الأهداف المشروعة التي وردت في هذا الدين العظيم.

أما الآن فهناك سياحة، وسفر من أجل ارتكاب الموبقات، وهناك سفر من أجل انتهاك المحرمات، وسفر هدفه الفاحشة، فكان السفر الذي يرقى بالإنسان إلى أعلى عليين أن يسافر المسلم ليجاهد، يسافر ليفر بدينه، يسافر لطلب العلم، يسافر ليلتمس الرزق، الآن يسافر ليزداد بعداً عن الله، يسافر ليقترب الفواحش والآثام.

الأمر أيها الإخوة بمقاصدها، أن تقيم الأمر بمقصده، فأى سفر كان من أجل التحلل من منهج الله عز وجل هو سفر لا يرضي الله، وفي بعض البلاد التي تأمر رعاياها ببعض أحكام الدين كالحجاب مثلاً تجد منظراً عجيباً في المطارات، أن المرأة التي كانت قبل قليل محجبة ما إن دخلت إلى الطائرة حتى خلعت حجابها، وظهرت بأبهى زينتها، وكان تعليق بعض المراقبين بهذه الظاهرة غير المقبولة أن هذا الدين الذي يعتنقه إنسان في مكان، ويتفقت منه في مكان، هو دين جغرافي.

كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى، لأن قريشاً يضطهد من يتبع الرسول لكن ثمة سؤال أتمنى أن نقف عنده وقفة متأنية:

ما الحكمة من كون الرسول ضعيفاً ؟

ما الحكمة أن يكون الرسول ضعيفاً ؟ الدليل أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما مر بعمار بن ياسر يعذب لم يستطع تخليصه، فما كان منه إلا أن قال:

((صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة))

[السيرة النبوية بسند صحيح]

لماذا كان النبي ضعيفاً ؟ أو ما الحكمة أن الله شاءت إرادته أن يكون النبي ضعيفاً.

((لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا))

[الترمذي عن أبي هريرة]

بل:

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

(سورة الأعراف الآية: 188)

لماذا ؟ لأنه لو كان قوياً كأقوياء هذا العصر، وجاء بهذه الرسالة لآمن به الملايين المملينة، لا عن قناعة، ولا عن إيمان، ولا عن عبادة، ولكن آمنوا خوفاً منه، وهذا الإيمان لا قيمة له عند الله إطلاقاً، لذلك كانت حكمة الله عز وجل أن يجعل سيد الخلق ضعيفاً، لا يملك لا لهم ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً، ليكون الإيمان برسول الله إيماناً حقيقياً ، لكن بعد حين الله ﷺ يتفضل عليه بالقوة.

أحوال المؤمن مع الله تعالى

بالمناسبة، كل مؤمن له مع الله أحوال ثلاثة، وهذا الكلام ينطبق على كل مؤمن:

الحال الأول: حال التأديب، إذا كان هناك مخالفات.

الحال الثاني: حال الابتلاء وهو مستقيم.

الحال الثالث: حال التكريم.

أنت بين التأديب، والابتلاء، والتكريم، وقد تكون هذه الأحوال الثلاثة متداخلة، وقد تكون متميزة، مرحلة تأديب، ومرحلة ابتلاء، ومرحلة تكريم، أو في اليوم الواحد تكون معاملة من الله أساسها التأديب، ومعاملة أخرى أساسها الابتلاء ومعاملة ثالثة أساسها التكريم.

﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾

(سورة العنكبوت)

هل تعتقدون أن الإنسان بإمكانه أن يقول: أنا مؤمن، دون أن يمتحن، قال تعالى:

﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾

(سورة المؤمنون)

الله عز وجل قادر أن يحجم كل إنسان، أو أن يعيده إلى حجمه الطبيعي، قل ما شئت، لكن الله يسوق لهذا الإنسان بحكمة بالغة ظروفاً تكشفه على حقيقته، لذلك الله ﷻ لا تخفى عليه خافية.

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾

(سورة غافر)

علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

كان المؤمنون قبل الهجرة بين أي يفرّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى مخافة أن يُفتتن، وكان من هو مفتون بدينه، وكان من هو معذب في أيديهم، وكان من هو هارب إلى بلاد أخرى، فهم بين معذب، ومفتون، وهارب، ومضطهد، وفارّ بدينه.

((ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة، ألا إن سلعة الله الجنة))

[رواه الترمذي والحاكم في المستدرک عن أبي هريرة].

الحكمة من الأمر بالصبر في مكة وعدم القتال

إن جنة عرضها السماوات والأرض لا تأتي بركعتين وليرتتين، بل تحتاج إلى جهد كبير، ومن طلب الجنة بغير عمل فطلبه ذنب من الذنوب، يقول خبر الأمة عبد الله بن عباس: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ:

((فيقول لهم اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال))

[ورد في الأثر]

هناك توجيه إلهي هو في الحقيقة تشريع، وهو أن الله عز وجل لا يقبل بالتعبير المعاصر حرباً أهلية.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾

(سورة النساء الآية: 77)

هذه الآية في مكة، البيت الواحد فيه مؤمن وفيه مشرك، فلو سمح بالقتال في مكة لكانت هذه الحرب حرباً أهلية، ولأحرقت الأخضر واليابس، وقد قال الله عز وجل:

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ

بَعْضٍ ﴾

(سورة الأنعام الآية: 65)

بل إن الثالثة هي أصعب ما في الحياة الدنيا.

شيء آخر، الدعوة لا تنمو إلا بالسلام، فلما انتقل الصحابة الكرام إلى المدينة حيث الأمن والسلام والهدوء نمت قدراتهم، وازداد نشاطاتهم، وأقبلوا على ربهم، هذا شأن الإنسان، وأكد لكم هذا المعنى مرة ثانية: أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾

(سورة الفتح).

متى كان هذا الفتح؟ كان هذا الفتح في صلح الحديبية، وكانت مناسبة هذا الفتح للسلام، والأمن، والاستقرار، هذا ما ينقص المسلمين اليوم، فقد تهاونوا سابقاً وقصروا، ولم يعدوا العدة لأعدائهم، فتفنن أعداؤهم في إرهابهم، وفي تخويفهم، وفي تهديدهم، وفي الضغط عليهم، قال تعالى:

﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(سورة الأنفال الآية: 60)

إذا أنت حينما تعد العدة تحقق هدفاً لا يكون إلا بها، أنك ترهب أعداءك، وكم من دولة قوية عندها أسلحة قوية لا تحتاج أن تستخدمها إطلاقاً، لكن وجود السلاح يلقي الرعب في قلوب الأعداء، والذي يحصل الآن من تدنيس للمصحف، ومن تشويه لمكانة النبي عليه الصلاة والسلام هو بسبب ضعف المسلمين، هذا الذي يحدث تحصيل حاصل، لذلك المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، يقول عليه الصلاة والسلام:

((فيقول لهم اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال))

لما هاجر ﷺ إلى المدينة، واستقر المسلمون، وكان لهم كيان، وقيادة، وأتباع، عندئذ نزل قوله تعالى:

﴿ أُنزِلَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

(سورة الحج)

من أوائل من هاجر من الرجل والنساء

وهذه أول آيات القتال، الآن أول المهاجرين، كلن مصعب بن عمير، وعبد الله بن أم مكتوم، أول من هاجر إلى المدينة، وكانا يقرآني الناس القرآن كما ورد في آثار السيرة النبوية، في حين وردت روايات أخرى تفيد أن أول من هاجر هو أبو سلمة بن عبد الأسد، وذلك بعد أن أذته قريش على أثر رجوعه من هجرته إلى الحبشة، فتوجه إلى يثرب قبل بيعة العقبة بسنة واحدة، على أنه يمكن الجمع بين الخبرين في أن هذا الصحابي أبو سلمة وصل إلى المدينة، لا هجرة، ولكن فراراً بدينه، وكانت قبل بيعة العقبة، وكان الذي أشار إلى أن أول من هاجر هو مصعب بن عمير أراد هذا الإنسان الكريم لأنه هاجر بأمير النبي بعد بيعة العقبة الأولى والثانية، وقد بينت

أحداث السيرة والمصادر المعتمدة الكثيرة، من أساليب قريش في محاولتها عرقلة هجرة المسلمين إلى يثرب، وإثارته للمشكلات في وجه المهاجرين، كالإرهاب مثلاً، وحجز الزوجات، والأطفال، وسلب الأموال، أو الاحتيال لإعادة من هاجر منهم، لأن هؤلاء المسلمين إن لم يهاجروا هم في قبضتها، وتحت سيطرتها، فإذا هاجروا تفلتوا من قبضتها، ونجوا من سيطرتها، لذلك كانت قريش تمنع الهجرة، إما بسلب الأموال، أو بحجز الزوجات، أو بالتهديد، أو بالوعيد.

لكن الصحابة الكرام كانوا على استعداد لا حدود له ليفقدوا أنفسهم بكل ما يملكون.

إنَّ أم سلمة رضي الله عنها لها قصة عجيبة، تأتي في سير الصحابة، وكيف كانت مع زوجها الأول، وكيف أن قريشاً انتزعتها وطفلها من زوجها، وكيف أن رحلة العذاب قد استمرت قرابة سنة، قبل أن يتاح لها أن تسترجع ابنها، وأن تلحق بزوجها، زوجها هاجر، وقد أخذوها وكانت برفقته، ومنعوها أن تهاجر، وأخذوا ابنها رهينة، ومضى عام حتى استطاعت أن تصل إلى المدينة، وأن تأتي بولدها إليها.

الحقيقة أن لقصة أم سلمة تفاصيل مذهلة، كما قال عليه الصلاة والسلام.

((فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَفُّهُوا))

[رواه البخاري عن أبي هريرة]

لم يكن مسلماً عثمان بن طلحة، فرق لها، رقّ لامرأة زوجها في المدينة، وهي محجوزة في مكة، هي مؤمنة، وقومها ليسوا مؤمنين، فما كان منه إلا أن اصطحبها مع طفلها قرابة أسبوعين من مكة إلى المدينة على ناقه لها، وناقته له، ولم ينظر إليها، هذا قبل أن يسلم، كان إذا أراد أن يريحها ينيخ ناقته، وبيتعد كثيراً، ثم حين يزعم أن يتابع السير، يوقظ الناقة يدعوها إلى أن تتركب الناقة، ويلتفت إلى جهة أخرى، ثم ينطلق بهذه الناقة، وكان مشركاً قبل أن يسلم، لذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا رأى إنساناً دخل في الإسلام يقول له يا فلان:

((أسلمت على ما أسلفت من خير))

[رواه أحمد في مسنده عن حكيم بن حزام وهو متفق عليه]

وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

((فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَفُّهُوا))

وكتعقيب على هذه الحقيقة: إن الله عز وجل يتولى الصالحين، فأَيُّ إنسان صالح ولو لم يكن يعرف الله عز وجل ما دام صالحاً يتولاه، ويأخذ بيده إلى الإيمان.

إن صهيب الرومي منعه زعماء قريش من الهجرة بحجة أنه كان قد أتى إلى مكة فقيراً، فقالوا له: فكثير مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون هذا أبداً، ليس هناك هجرة، جئتنا فقيراً، واغتنيت بين أظهرنا، الآن تريد أن تخرج مع المال، لن نسمح لك بذلك، ما فعل صهيب؟ عرض عليهم أن يجعل لهم المال كله في مقابل أن يخلوا سبيله، عندئذ وافقوا على ذلك، وبلغ ذلك الرسول ﷺ فقال:

((ربح صهيب، ربح صهيب، ربح صهيب))

إذا دفعت كل مالك، واستطعت أن تؤمن، وأن تنجو فأنت الرابع الأول، من هنا قيل: مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح.

يروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه خبر هجرته، حيث تواعد مع عياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص السهمي على الالتقاء في مكان بعيد عن مكة، وكيف أن هشام بن العاص قد حبس عنهما، وفتن، فافتتن، ثم تحدث عن خبر وصولهما إلى ظاهر المدينة ونزولهما في بني عمر بن عوف، وخروج أبي جهل بن هشام وأخيه الحارث إلى عياش بن أبي ربيعة، وإقناع إياه بضرورة العودة إلى مكة ليبر بقسم أمه التي نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراه، وكيف حذره عمر منهما، وقوله له: يا عياش، > إنك والله إن يريد القوم إلا ليفنونك عن دينك، فاحذرهم <<.

إذا أخذ مال مسلم كله، وحُجزت زوجة آخر وطفله كرهينة، ومنعوا الثالث بالقوة أن يهاجر، وفي بعض الطريق أوثقاه، وربطاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن، يقول سيدنا عمر: كنا نقول: ما والله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر ببلاء أصابهم، فلما قدم النبي ﷺ أنزل الله تعالى فيهم.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

(سورة الزمر)

أيها الإخوة، المتاعب التي تحملها أصحاب رسول الله أكبر من أن توصف حتى وصل الدين إلينا، وقدم إلينا على طبق من ذهب، ماذا يطلب من المؤمنين اليوم؟ يطلب الحفاظ على دينهم، وأداء العبادات، وفعل الخيرات، أما الصحابة الكرام ففتنوا، وقتل بعضهم، وحبسوا، وأخذت أموالهم، وحجزت عنهم زوجاتهم، وكانوا أبطالاً بحق، بل إن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا نخبة، كان عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((إن الله اختارني واختار لي أصحابا))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه ضعف]

لزوم الجماعة والتحذير من الفرقة

ومن أعظم نعمة ينعم الله بها عليك أن يكون الذين حولك على شاكلتك، ومن تكريم الله للإنسان أن يحاط بمن هو على شاكلته، يقدرهم ويقدرهم، ويحبهم ويحبوه، ويعينهم ويعينوه، لذلك قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

(سورة التوبة)

أي أنكم لا تستطيعون أن تتقوا ربكم إلا إذا كنتم مع المؤمنين، مع الصادقين، والحمية عن أهل الشرك والكفر ضرورية، لكن البعد عن أهل الصلاح والتقوى خطأ كبير.

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾

(سورة الكهف)

((وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[رواه أحمد عن النعمان بن بشير بسند حسن]

وإن الله مع الجماعة، ويد الله مع الجماعة.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيُدُّ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَدَّ شَدًّا إِلَى النَّارِ))

[رواه الترمذي]

((فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ بِحَبْحَبَةِ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزِمِ الْجَمَاعَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الْإِثْنَيْنِ أَبْعَدُ))

[أحمد]

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ ذَنْبُ الْإِنْسَانِ كَذَنْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، وَيَأْكُمُ وَالشَّعَابَ وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ))

[أحمد]

أيها الإخوة الكرام، تأمرت قريش على حياة الرسول ﷺ بعد أن علم المشركون بما تم بين النبي ﷺ والأنصار في العقبة الثانية، ورأوا المسلمين يهاجرون إلى يثرب جماعات وأفراداً، وقد أرّخ الزهري لهجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال:

" مكث عليه الصلاة والسلام بعد الحج ببقية ذي الحجة، ومحرم، وصفر، ثم إن المشركين اجتمعوا يعني على قتله، وقد تواترت الأخبار بأن خروج النبي ﷺ من مكة كان يوم الاثنين، وكان دخوله المدينة يوم الاثنين أيضاً، وحادثة تأمر قريش على قتل النبي نأخذها بالتفصيل إن شاء الله في درس قادم.

والحمد لله رب العالمين

الدرس (04) : لن نمكن في الأرض قبل أن نتنصر على أنفسنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-02-2006

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

إشارة القرآن إلى هجرة النبي

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس فقه السيرة النبوية، ومع موضوع بدأنا به في الدرس الماضي، وهو هجرة النبي ﷺ إلى يثرب.

أيها الإخوة، أشار القرآن الكريم إلى هجرة النبي عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى:

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(سورة التوبة)

حقائق مهمة لهذه الأمة

إله النبي هو إلهنا

أيها الإخوة، الحقيقة الأولى، ونحن في أمس الحاجة إليها أن إله محمد ﷺ الذي نصره في الهجرة هو إلهنا، وكما نصر نبيه وأصحابه الكرام يمكن أن ينصرنا.

ولكن إذا قدمنا الأسباب التي نستحق بها أن نتنصر، قال تعالى:

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾

(سورة آل عمران الآية: 126)

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾

(سورة محمد الآية: 7)

لذلك نسال الله أن نتنصر على أنفسنا حتى نتنصر لله، حتى نستحق أن ينصرنا على أعدائنا.

هذه أول حقيقة:

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ ﴾

من هو الثاني؟ صديق الأمة.

" ما طلعت شمس على رجل بعد نبي خير من أبي بكر "

هو صديق المسلمين.

((أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر))

[رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي حنيفة]

((ما ساءني قط فاعرفوا له ذلك))

[ورد في الأثر]

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾

الله عز وجل ينتظر منا أن ننصر دينه، فإن تخاذلنا نصر هو دينه، وحرمانا هذه المرتبة العلية في نصر دينه، لذلك لا تنسوا هذه الكلمة: لا تقلقوا على هذا الدين إنه دين الله، فقد ينصره الله بالرجل الفاجر، ولكن لنقلق على أنفسنا فيما إذا سمح الله لنا أو لم يسمح أن نكون جنوداً له، أعلى مرتبة ينالها الإنسان أن يكون جندياً للحق، وأخس مرتبة يكونها الإنسان أن يكون في خندق مناهض للحق، لعل أشقى البشر من عاندوا الرسل، أبو بكر وعمر هم في أعلى عليين، وأبو جهل وأبو لهب في أسفل سافلين، هم في مزبلة التاريخ، بين أن تكون في أعلى عليين إذا نصرت الحق وأهله، وبين أن يكون الإنسان في أسفل سافلين إذا كان في خندق معادٍ للحق.

هنا ملمح يحضرني، لماذا قال الله عز وجل في القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

(سورة التحريم)

هذه آية فيها تساؤل كبير من أجل امرأتين ضعيفتين.

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

لو أن امرأتين انتقدتا النظام هل يعقل أن تستنفر القوى البحرية والجوية والبرية، وكل القوى؟ مستحيل! ما معنى الآية؟ معنى الآية إذا كنت في خندق معادن للحق فاعلم من هو الطرف الآخر، أشقى إنسان من وقف في خندق معادن للحق، من أراد أن يطفى نور الله

إخوانا الكرام، بربكم لو أن إنساناً توجه إلى الشمس، ونفخ بفمه يريد أن يطفى نورها بماذا نحكم على عقله؟ بالجنون.

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾

(سورة التوبة الآية: 32)

المصائب فرزٌ ومنح ومنح

إذا كان ضوء الشمس يستحيل أن تطفئه، فهل تستطيع أن تطفى نور الله؟ لذلك كلمة أقولها لكم لعلمهم قاسية: ما ضر الصحابة نبج الكلاب، وما ضر البحر أن ألقى فيه غلام بججر، ولو تحول الناس إلى كناسين ليثيروا الغبار على هذا الدين ما أثاروه إلا على أنفسهم، والذي حصل من تناول على سيد الخلق وحبيب الحق فيه خير لا يعلمه إلا الله، ولكن في المستقبل، لأن كتاباً صدر مرة وصف بيوت النبي وصفاً لا يليق بمقام النبوة، (سلمان رشدي)، ثم أسلم بسبب هذا الكتاب 20 ألف بريطاني، لأنهم ما صدقوا هذا الوصف، فبحثوا عن الحقيقة فاهتدوا، وأنا أطمئنكم أن مئات من الألوفا سوف يبحثون عن الحقيقة، وسوف يدخلون في دين الله أفواجا، وأن كل شيء وقع إرادته الله، وكل شيء أرادته الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

(سورة الأنعام)

إخواننا الكرام، الشيطان الذي هو رأس الإضلال في الكون، والذي يريد دائماً أن يغوي الإنسان، وأن يدعوه إلى المعصية، وأن يصرفه عن الطاعة، لو أنه يستطيع أن يفعل ما يريد لما أمده الله إلى يوم يبعثون، ولكن لأن الله يوظف كيد الخير المطلق ما أبقاء يتوهم أنه يضل البشر، كل شيء فيه شر هو شر نسبي، موظف للخير المطلق، والشر المطلق لا وجود له في الكون،

﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

وهذه عملية فرز.

﴿ وَاتَّبَعَى إِلَيْهِ أَفْنِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾

(سورة الأنعام)

هذه عملية فرز، وحديث الإفك عملية فرز، المؤمنون الصادقون ظنوا بأنفسهم خيراً، والمنافقون فرحوا بهذه الأخبار.

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

(سورة آل عمران الآية: 179)

عملية الفرز والامتحان والابتلاء مستمرة طوال الحياة، وهذا الذي حصل نوع من الابتلاء، ونوع من الامتحان، ونوع من الفرز، لذلك الإله الذي نصر محمد ﷺ وأصحابه الكرام موجود، وهو إلها، ولماذا لا ينصرنا؟! وزوال الكون أهون عليه من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾

(سورة غافر)

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة الروم)

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾

(سورة النور الآية: 55)

﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

(سورة الصافات)

ومرة ثانية: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، ولكن لابد من دفع الثمن، نحن نقرأ في التاريخ أن الفرنجة حينما احتلوا القدس ذبحوا 70 ألفاً من المسلمين، وكتاب التاريخ يقفزون فجأة إلى أن صلاح الدين فتح القدس، ولم يسفك دماً، وكأنه فعل معجزة، وكأنه فعل أسطورة، وهذا لأن صلاح الدين الأيوبي استحق النصر بعد خمسين عاماً من إزالة المنكرات، ومن تعليم الطلاب العلم الشرعي، هناك جهود جبارة بذلها هذا القائد البطل توجت بفتح القدس، فإذا أغفلنا هذه الجهود شعرنا أننا أمام أسطورة، أو أمام معجزة، وليس هناك أساطير ولا معجزات، لا نتنصر إلا بالصلح مع الله، لا نتنصر إلا بالتوبة، ما نزل بلاء لا يرفع إلا بالتوبة.

﴿ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(سورة آل عمران)

سيدنا صلاح الدين حينما أخرج الغزاة من الشرق قال: لم يعودوا ما دمنا رجالاً، لكنهم عادوا، عادوا مرتين، عادوا في المرة الأولى حينما دخل قائد الجيش الفرنسي إلى مقامه، وقال: ها قد عدنا يا صلاح الدين، وعادوا ثانية إلى العراق، وإلى أفغانستان، ولسان حالهم يقول: ها قد عدنا يا صلاح الدين.

النصر له ثمن

النصر له ثمن، ثمنه طاعة الله عز وجل، أما توقع النصر من دون طاعة فغباء وسذاجة، أما انتظار معجزة فغباء وسذاجة، أما انتظار أن يأتي شيء غير مألوف فننتصر غباء وسذاجة. أيها الإخوة،

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ

اللَّهُ مَعَنَا ﴾

معية الله عامة وخاصة

ومعنى: إن الله معنا، ودققوا في هذا الكلام، والكلام كبير، وخطير، معية الله معيتان:

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾

(سورة الحديد الآية: 4)

هذه معية عامة، يعني معكم بعلمه فقط، هو مع الكافر، مع المنافق، مع الملحد مع العاصي، مع الفاسق، مع المؤمن بعلمه

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾

إذا وضع إنسان في محله التجاري آلة تصوير، وهو في مكتب في الطابق الثاني، وهو يرى كل من يدخل، وكل من يخرج، هو مع كل الزبائن، يرى بعلمه فقط، لكن إذا جاءت المعية خاصة فلها معنى رائع، لها معنى نحتاجه نحن اليوم، إذا قال الله: إن الله مع المؤمنين، فإن الله معهم بالتأييد والنصر، والحفظ، والتوفيق، إن الله مع المؤمنين، المعية الخاصة لها معناً إيجابياً يحتاجه المؤمن أشد الاحتياج.

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَاتِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

إخوتنا الكرام، النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بكل الأسباب، وأغلق كل الاحتمالات، وسد كل الثغرات، وغطى كل الحاجات، مع أنه الإنسان الأول الذي يستحق النصر، لذلك المنهج النبوي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، أخذ بالأسباب كلف من يأتيه بالأخبار، وكلف من يحو الآثار، وكلف من يأتيه بالطعام، وكلف من يدلّه على الطريق، ولم يدع ثغرة إلا وغطاها، سار باتجاه الساحل، واختبأ في غار ثور ليخف الطلب، ولماذا وصلوا إليه؟ ولماذا سمح الله لهم أن يصلوا إليه؟ ليبين الله لنا أن اعتماد محمد ﷺ لم يكن على الأسباب وقد أخذ بها، لكن اعتماده كان على رب الأرباب، لذلك لما وصلوا إليه، وقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله لو نظر أحدهم لموطأ قدمه لرآنا قال:

((مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِإِثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا))

[أخرجه البخاري عن أبي بكر]

إذاً: يجب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، إذاً إذ يقول لصاحبه وقد وصل المطار دون إلى الغار:

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾

هذه السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدتها ولو ملكت كل شيء عطاء لا يوصف، إذا أنزل الله على قلبك السكينة أنت أغنى الناس، وأنت أقوى الناس وأنت أحكم الناس، وأنت أعلم الناس، وأنت أكرم الناس، فإذا حجبها عنك وكانت الدنيا بيدك أنت أفقر الناس، وأنت أجهل الناس، وأنت أضعف الناس، وأنت أبعد الناس عن الصواب.

﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾

تسكن لها، ترتاح لها، تسعد بها، ترضى بها، تطمئن بها،

﴿ عَلَيْهِ وَآيِدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾

والله عز وجل عنده جنود لا نراها.

مرة أراد أعداؤنا أن يخطفوا عدداً كبيراً جداً من المصلين ليلة القدر في جنوب لبنان، وهيئوا خطة محكمة جداً، وضعوا في طائرتين مروحيتين 125 ضابط مغوار، كل واحد كلف تدريبه 5 ملايين، يتقن اللغة المحلية، والعامية، والسلاح الأبيض، والصراع الياباني، واستخدام أعقد الأجهزة والأسلحة، الخطة أن يخطفوا المسلمين من المساجد، ليأخذوهم رهائن يبادلون عليهم أسراهم الذين أسروا في جنوب لبنان،

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾

فوقعت الطائرة الأولى على الطائرة الثانية فوق مستعمرة في إسرائيل، ومات كل الضباط، ولم تُمنَّ إسرائيل بهزيمة بشرية في نخبة ضباطها من تاريخها منذ أن أسست وحتى الآن كهذه المأساة، لأن الله تدخل وانتهى كل شيء، اعترفوا بتسعين، ثم أوردوا البقية في حوادث طرق.

إن الله عز وجل إذا كنا معه كان معنا، وإذا اصطلحنا معه نصرنا، وإذا كنا معه كنا أقوىاء، وإذا كنا أقوىاء لن يستطع العدو أن يسخر من نبينا، ولا أن يدنس مصحفنا، ولا أن يستفزنا بأن تقف امرأة وتخطب في كنيسة خطبة الجمعة، وتصلي بالرجال، وعلى مرأى خمسين مندوب وكالة صحافة، هذا استفزاز للمسلمين.

الذي يحصل الآن استفزاز، أنتم ضعفاء، سندنس مصحفكم، ونسخر من نببيكم، لو كنا أقوىاء لما تجرؤوا، لو كنا مطبقين لقوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

(سورة الأنفال الآية: 60)

لما تجرؤوا.

المعركة حياة أو موت

أيها الإخوة، معركتنا مع أعداءنا معركة حياة أو موت، معركة وجود أو لا وجود، فلا بد من أن نتعاون، وأن تصطليح، وأن نعود إلى الله.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾

يقول قائد الطائرة العليا كما هو مسجل في الصندوق الأسود في آخر كلمة قالها: أنا أسقط، ولا أدري لم أسقط، وليس ثمة سبب في الطائرة يدعو إلى السقوط، الله عز وجل عنده جنود لا يعلمها إلا هو، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ))

[متفق عليه عن جابر]

لكن أمته حينما تركت سنته هزمت بالرعب مسيرة عام، نخاف من أي تهديد، وننسى أن الله بيده كل شيء.

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

(سورة آل عمران)

أيها الإخوة الكرام،

﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾

أحد الجنود أن يلقي الله في قلبك الخوف، أحياناً يقلل عدوك بك، أو التكتير، وإلقاء الرعب، وإلقاء الخوف. التنبيه إلى معنى خطير في الآية

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾

لو أن واحداً من الإخوة الكرام قرأ الآية على النحو التالي متوهماً أن الواو الثانية حرف عطف، وقال: وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، المعنى خطير، ولا يليق بمقام الألوهية، أي: جعل كلمة الذين كفروا السفلى بعد أن كانت عليا، وجعل كلمة الله العليا بعد ما كانت لا سمح الله سفلى، هذا المعنى مستحيل، انظر إلى ضمة واحدة تغيير المعنى.

إذا كان الواحد ضعيفاً في الإعراب ووقف، وتمثل بقول أحد الأصحاب الكرام:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب ألقى في الله مصرعي

إلى جهنم وبئس المصير، والبيت:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً.

شهاد إلى جنة عرضها السماوات والأرض، بين جنة عرضها السماوات والأرض وجهنم وبئس المصير حركة واحدة، بين أن تقول: حين أقتل مسلماً، أو حين أقتل مسلماً فرق.

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾

الواو ليست واو عطف، هي واو استئناف، لو عددناها واو عطف كان المعنى: وجعل كلمة الله هي العليا بعد أن لم تكن عليا، هذا مستحيل، أما الواو هنا فواو استئناف:

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾

وقف:

﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾

دائماً،

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾

دائماً، هذا واضح.

وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

أيها الإخوة،

﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

من أدق معاني عزيز حكيم أي أن كل الخلق يحتاجونه، بل إن كل شيء يحتاجه في كل شيء،

﴿ عَزِيزٌ ﴾

الشيء العزيز إذا احتاجه الناس، وكان نادراً، احتاجه الناس وكان نادراً، أما إذا قلت:

﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾

يحتاجه كل شيء في كل شيء، ويستحيل أن تحيط به،

﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

إخواننا الكرام، في معامل الحديد روافع أساسها مغناطيسي، سطح حديد كبير جداً محاط بوشيعة كهربائية، فإذا وضع هذا السطح فوق عشرين طنّاً من الحديد حملها، ونقلها إلى مكان آخر، ولا يستطيع إنسان أن ينزع عن هذه الرافعة قطعة، لكن العامل الذي يدير هذه الرافعة لو ضغط على زر عشر الميلي وقطع الكهرباء كل هذا الحديد الذي تحمله الرافعة يسقط.

إن رأيت قوياً، متغطرساً، طاغية، لثيماً، خسيساً، معتدياً، مجرماً، سفاحاً بثانية واحدة خثرة بالدماغ ينتهي، ألم تروا ذلك؟ بثانية واحدة انتهى، الاسم المخيف انتهى، لأن الإنسان في قبضة الله، ومعنى قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾

(سورة الأنفال الآية: 59)

يعني أن الكافر في قبضة الله، في أي لحظة هو في قبضته، معنى:

﴿ سَبَقُوا ﴾

أي تفلتوا من عقاب الله، أو أرادوا شيئاً ما أراد الله، لذلك يقولون: خطة الكافر تستوعبها خطة الله، لهذا أي شيء وقع إرادته الله، وأي إرادته الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾

(سورة الزخرف)

﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾

(سورة الكهف)

﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾

(سورة الأعراف الآية: 51)

قد يصنع مصنع الطائرات طائرة، ويبيعها، أمر هذه الطائرة ليس بيد مدير المعمل، يقول لك بعثها، وأمرها ليس بيدي، لكن الله عز وجل يقول:

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

(سورة الزمر)

﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾

(سورة الأعراف الآية: 51)

﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾

(سورة الكهف)

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾

(سورة الزخرف الآية: 84)

﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾

(سورة هود الآية: 123)

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾

(سورة الغاشية)

هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، التوحيد سكينته، التوحيد أمن التوحيد راحة، التوحيد سعادة، التوحيد ثقة بالله، التوحيد تفاؤل، ونحن في هذه الظروف الصعبة نحتاج إلى التوحيد، نحتاج أن لا نرى مع الله أحدا.

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾

(سورة الأنفال الآية: 16)

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾

(سورة الأنفال)

أيها الإخوة الكرام، هذه آية الهجرة:

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

هناك زيادة قرأتها مرة في كتاب لا أذكره، يبدو أن عين أحد المطاردين وقعت على عين الصديق، فقال: يا رسول الله، لقد رأونا، فقال: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:

﴿ وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب، ماذا فقدت من وجدك، وماذا وجد من فقدك.

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيدته السماوات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات بين يديه، وأرسخت الهوى من تحت قدميه، وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، وغافر له قبل أن يستغفرني))

[رواه ابن عساکر عن كعب بن مالك]

أيها الإخوة الكرام، هذا هو التوحيد:

((أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملوك ومالك الملوك قلوب الملوك بيدي، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرفقة والرحمة، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم عليهم بالسخط والنقمة فساموهم سوء العذاب، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع، أكفكم ملوكم))

[رواه الطبراني عن أبي الدرداء]

((فإن صلاحهم لكم صلاح))

[رواه الطبراني عن شيخه الحسين بن محمد بن مصعب الأسناني]

آية الهجرة موضوع هذا الدرس.

وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين

أيها الإخوة، النصر بيد الله، وإن كنت بطلاً فحقق شروط النصر، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

{ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }

(سورة الروم)

إذا كنت بطلاً تحقق شروط النصر، لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد ألا ينصر عباده المؤمنين، ونحن في محنة، وإن شاء الله هذه المحنة تتبعها منحة، ونحن في شدة وإن شاء الله تتبعها شدة إلى الله، ونحن في العناية المشددة، نحن نمثل إنسان معه التهاب المعدة حاد، وشفاء هذا المرض محقق، وسهل جداً، ولكن يحتاج هذا المريض إلى حماية تامة، بينما الطرف الآخر معه ورم خبيث، ولا أمل في شفائه، لو أن الطرف الآخر سأل طبيبياً ماذا أكل؟ يقول له: كل ما شئت.

{ فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ }

(سورة الأنعام)

لكن الذي معه التهاب المعدة حاد، الطبيب المخلص يقيم الدنيا عليه ولا يقدها إذا أكل أكلة تؤذي التهاب معدته، لذلك نحن في العناية المشددة، ونحمل حملاً ثقيلاً، لأن الله ينتظر منا أن نتوب إليه.

{ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَهَا شِيعًا يَسْتَضِعُّونَ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبُّونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ }

(سورة القصص)

وفي درس قادم إن شاء الله ندخل في تفاصيل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بعد أن كان الدرس الماضي كان هجرة أصحابه إلى المدينة.

والحمد لله رب العالمين

الدرس (05) : الصلوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

أيها الإخوة الأكارم، مع درس جديد من دروس فقه السيرة النبوية، ولا بد من كلمة تمهيدية.

كلمة تمهيدية

سيرة النبي كتاب وسنة

لو أنه لم يكن كتاب وسنة لكانت سيرة النبي ﷺ كتاباً وسنة، لأنه :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾

(سورة النجم)

فأقواله، وأفعاله، وإقراره، وصفاته منهج لبني البشر، هو سيد الخلق وحبیب الحق.

لكن لا بد من ملاحظة ثانية:

أحداث السيرة مقصودة للتشريع

إن كل الأحداث التي وقعت في عصره كانت مقصودة من قِبَلِ اللَّهِ عز وجل ليقف منها الموقف الكامل المشرع، أفعاله تشريع يمكن أن نستنبط من أفعاله قواعد، وقوانين ومناهج في السلامة والسعادة، هو إنسان متميز أقسم الله بعمره الثمين، إله خالق السماوات والأرض يقسم بعمر إنسان، قال:

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

(سورة الحجر)

والمقولة التي أرددتها كثيراً: أن الكون قرآن صامت، وأن القرآن كون ناطق ، وأن النبي ﷺ قرآن يمشي، هو زوج كامل، وأخ كامل، وأب كامل وجار كامل، وقائد كامل، وزعيم كامل، فلذلك ما خاطبه الله عز وجل باسمه أبداً:

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾

(سورة مريم الآية: 12)

﴿ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قُمْ فَمِنَ عِبَادِنَا ﴾

(سورة آل عمران الآية: 55)

ولم يرد في القرآن الكريم يا محمد:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾

(سورة المائدة الآية: 67)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾

(سورة التحريم الآية: 9)

إذا بادئ ذي بدء الأحداث التي وقعت في حياة النبي كانت مقصودة لذاتها، ليقف النبي منها موقفاً كاملاً مشرعاً لنا، لذلك إذا قال الله عز وجل:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(سورة الأحزاب الآية: 21)

كيف يكون النبي ﷺ أسوة حسنة لنا إن لم نعرف سيرته، هذا ينقلنا بالمناسبة إلى قاعدة في أصول الفقه وهي:

ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض

أنه ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، الصلاة فرض، هل تتم من دون وضوء ؟ لا، إذا الوضوء فرض، ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما تتم السنة إلا به فهو سنة، قياساً على هذا، إذا قال الله:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

هذا أمر يقتضي الوجوب، كيف يكون النبي ﷺ أسوة لنا إن لم نعرف سيرته ؟ تكاد معرفة سنة النبي العملية تكون فرض عين على كل مسلم، لينفذ الآية، أضرب على ذلك مثلاً:

السيدة عائشة أم المؤمنين زوجة سيد العالمين، الطاهرة، العفيفة، الحصان اتهمت بأغلى ما تملكه امرأة، اتهمت بعفتها، لماذا ؟ لتكون أسوة حسنة لكل فتاة طاهرة عفيفة، حصان اتهمت كيداً بأثمن ما تملكه. إذا هؤلاء الصحابة الكرام هم قدوة لنا أيضاً، لأنهم عاشوا مع رسول الله ﷺ.

عقد زعماء قريش اجتماعاً خطيراً في دار الندوة، حيث تشاوروا في أضمن الوسائل للتخلص من الرسول ﷺ،
والقرآن الكريم لخص مؤامرتهم، قال تعالى:

﴿وَأَذِمْكُمْ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾

(سورة الأنفال الآية: 30)

أي ليسجنوك.

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ﴾

﴿اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

(سورة الأنفال)

مرة ثانية: معركة الحق والباطل أرادها الله عز وجل، لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي، ولأن المؤمن لا يرقى إلا بالصبر والبر والتضحية، ولأن الكافر لعله يهتدي إذا مع المؤمن،

﴿وَأَذِمْكُمْ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

أيها الإخوة، بين عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حصار المشركين لبيت ﷺ ابتغاء قتله، هذا يعني أنه لا يجب أن تضعف إذا أراد بك الأعداء شراً، الله عز وجل يسمح لهم بالبدايات، ولكنهم لن ينجحوا، لأن الله عز وجل يقول:

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

(سورة الأعراف)

الأمر تدور، وتدور، وتدور، ولا تستقر إلا على نصر المؤمن، لذلك ينبغي ألا تضحك أولاً، بطولتك أن تضحك آخر، إن الذي يضحك أولاً يضحك قليلاً، ثم يبكي كثيراً، أما الذي يضحك آخر يبكي قليلاً، ثم يضحك كثيراً، ثم جنة عرضها السماوات والأرض.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾

(سورة المطففين)

لا تفرح بالضحك المبكر، افرح بالضحك المتأخر.

حينما يولد الإنسان كل من حوله يضحك وهو يبكي وحده، فإذا وافته المنية كل من حوله يبكي، فإذا كان بطلاً يضحك وحده.

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة يس)

حصار المشركين لبيت النبي ابتغاء قتله

بين عبد الله بن عباس حصار المشركين لبيت النبي ﷺ، الآن هؤلاء الصناديد، كفار قريش، أبو لهب، أبو جهل، هؤلاء الذين قاوموا الدعوة، وحاربوا النبي، ونكلوا بأصحابه، أين هم اليوم؟ في مزبلة التاريخ، والذين وقفوا معه، أبو بكر عمر، عثمان، علي، طلحة، الزبير، ابن مسعود، هؤلاء الصحابة الكبار أين هم؟ في أعلى عليين. إخواننا الكرام، امشي في سوق الحمدية في يوم مزدحم، كل هؤلاء الذين تراهم بعد مئة عام تحت الأرض، وكل الذين كانوا قبل مئة عام كانوا مثلنا، بيوت، وهموم وشركات، ودعاوى في القضاء، وزواج، وطلاق، وسفر، وحضر، وتهنئة، وحفلات، انتهى كل شيء، الموت ينهي قوة القوي، وينهي ضعف الضعيف، وينهي صحة الصحيح، وينهي مرض المريض، وينهي غنى الغني، وينهي فقر الفقير، وينهي وسامة الوسيم، وينهي دمامة الدميم، ولا يبقى إلا العمل الصالح الذي عملته تقرباً إلى الله عز وجل، فالدنيا زائلة.

شدة حب الصحابة للنبي

سيدنا علي، وهذه تضحية كبيرة، لأن المشركين ائتمروا على قتل النبي ﷺ، وضع مكانه علي بن أبي طالب، واحتمال أن يدخلوا عليه فجأة، ويقتلوه دون أن يتحققوا قائم، فلذلك أبو سفيان قال مرة: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً.

امض يا رسول الله بما أردت، نحن معك، والله لو خضت هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا رجل، صل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، ودع ما شئت، فو الذي بعثك بالحق والذي تأخذه أحب إلينا من الذي تدعه لنا، هكذا الصحابة، أما صحابة نبي آخر فقالوا:

﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾

(سورة المائدة)

الصحابة الكرام أكرم الله نبيه بهم، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله اختارني، واختار لي أصحابي))

[رواه الطبراني عن عويمر بن ساعدة]

حصار المشركين لبيت النبي ابتغاء قتله

أما نحن فحاجة ماسة إلى هذا الدرس

ينقصنا الحب لا المساجد، المسجد النبوي كان سقفه من سعف النخيل، وأرضه من الرمل، هنا سجاد مدفأ من تحته، ثريات، أعمدة، سقف شامخ، المساجد أرقى الآن بكثير، والكتب والمجلدات، والمؤتمرات، والأشرطة شيء لا يصدق، لكن لا حب بيننا، لا أقول: نحن بالذات، ليس هناك حب بين المسلمين، الأمة الإسلامية ممزقة، لماذا؟

﴿ فَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

(سورة المائدة الآية: 14)

كلما اقتربت من الله أحببت أخاك، وكلما ابتعدت عنه تنافست معه، فالذي كان بين الصحابة من حب وود لا يعلمه إلا الله، أخوة صادقة، يؤدون صلاة العشاء مع رسول الله، ثم يفترقان صحابيان، وقبل الفجر يلتقيان فيعانق أحدهما الآخر ويقول لأخيه: وا شوقاه غاب عنه ست ساعات فقط، وا شوقاه، هكذا كان أصحاب النبي ﷺ.

حرص النبي على ردِّ أمانات المشركين مع خطورة الوضع

هنا نقطة دقيقة، أناس كثيرون يذهبون إلى بلاد الغرب، ويشتررون بطاقات انتمانية ليستخدموها في المحلات التجارية، ويشتررون بمبالغ طائلة، ويعودون إلى بلادهم ولا يدفعون شيئاً من هذه الديون المترتبة عليهم، ظناً منهم بغيباء ما بعده غيباء، وسذاجة ما بعدها ساذجة، وجهل ما بعده جهل أنهم كفار، لماذا أبقى النبي ﷺ ابن عمه وعرضه للخطر، خطر القتل، من أجل ماذا ؟

من أجل أن يرد الودائع لأصحابها، من أصحاب الودائع ؟ كفار، أرايتم إلى فهمنا السقيم !!؟

إخواننا الكرام، أنت إذا أسأت إلى مسلم يقول الناس: فلان أساء إلى فلان فقط ، أما إذا أسأت إلى غير المسلم فإنه يتهم الإسلام بالإساءة، أنا أرى أن الخطأ مع المسلم أقل بكثير من الخطأ مع غير المسلم، لماذا أبقى علي في فراشه، وعرضه للقتل ؟ من أجل أن يرد ودائع المشركين إلى أصحابها، لذلك قال تعالى:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

(سورة المائدة الآية: 8)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((من غش فليس منا))

[رواه الترمذي عن أبي هريرة]

مطلقاً، لو كان عابد وثن ينبغي ألا تغشه، إسلامنا إنساني، معظم الأنظمة في العالم أنظمة عنصرية، تعطي شعبها، ترفع مستوى شعبها، تهيب فرص العمل لشعبها على حساب بقية الشعوب، هذه أنظمة غير إنسانية، أما الإسلام فدين إنساني، والإسلام أممي، وكل من دخل في الإسلام له ما لنا، وعليه ما علينا، من دون أي تمييز، لذلك فإن إنساناً من هؤلاء أفتي له أن هؤلاء غير المسلمين لك أن تأخذ أموالهم، فأخذ أموالهم بجرم فقد أخذ المال الحرام ، وأودع السجن، مضى عليه في السجن سنوات، أعطي كتاباً في السيرة، فلما وصل إلى هذه الفقرة، رأى نفسه مجرمًا، كان متوهماً أنه فعل صواباً:

((اتقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافراً، فإنها ليس دونها حجاب))

[رواه أحمد في مسنده عن أنس]

هذا درس بليغ في السيرة، ضحى بابن عمه علي، واحتمل قتله قائم، من أجل أن يرد الودائع إلى أصحابها المشركين، لذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا مات أحد صحابته الكرام، وكان هذا الصحابي من أقرب الناس إليه يسأل: أعليه دين ؟ فإن قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم، من عادة الصحابة أن يقول أحدهم: علي دينه يا رسول الله، كي يصلي عليه، فيقبل النبي هذه الضمانة، ويصلي عليه، يسأله بعد يومين أديت الأمانة ؟ قال: لا، أديت الدين ؟ قال: لا، في اليوم الخامس يقول له: لقد أديت الدين، فيقول عليه الصلاة والسلام: الآن ابترد جلده.

كم في المسلمين من يأكل الأموال بالباطل زوراً وبهتاناً ؟ وهذا القضاء، أنا لست متشائماً، ولكن أتمنى ألا تعتبوا على الله إذا بدا لنا أنه تخلى عنا، لا تعتبوا على الله، البنية التحتية، الطبقة المسلمة أقل طبقة عندها أخطاء كثيرة جداً.

قال سيدنا عمر لأحد أصحابه: هل تعرف فلاناً ؟ قال له: نعم، قال له: هل جاورته ؟ قال: لا، هل سافرت معه؟ قال: لا، هل حاككته بالدرهم والدينار ؟ قال: لا، قال: إنك لا تعرفه إذاً.

وقفت عند هذه النقطة لأن هناك أناساً كثيرين يبيحون لأنفسهم أخذ أموال غير المسلمين، وهذا خطأ كبير، الأمانة لا تجزأ، والاستقامة لا تجزأ، وما هو حرام حرام، مع من يلوذ بك، ومع من لا يلوذ بك، مع من يدين بدينك، ومع من لا يدين بدينك.

وكما تعلمون انتقل النبي إلى غار ثور، وقام المشركون بتقفي أثره.

الأخذ بالأسباب والتوكل على الله

الحقيقة عوداً على بدء، ذكرت لكم في أول الدرس أن كل الأحداث التي وقعت في أحداث النبي مقصودة لذاتها، النبي علمنا أن نأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ثم نتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، علمنا ذلك والله عز وجل شاءت حكمته أن يصل المطاردون إليه، لماذا ؟ ما الحكمة ؟ الحكمة أنه أخذ بالأسباب تعبداً لله، ولم يعتمد عليها، لكنه اعتمد على الله، فلما وصلوا إليه كان واثقاً من الله قال:

((يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِإِثْنَيْنِ اللَّهِ تَالِثُهُمَا ؟))

[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ]

إذاً الدرس الثاني: ينبغي أن تأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، وينبغي أن تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء.

في روايات ليست قوية جداً نسيج العنكبوت رواية ضعيفة، والحمامتان الوحشيتان أيضاً رواية ضعيفة، والشجرة التي نبتت في وجه الغار الرواية ضعيفة، لكن من حكمة الله ﷻ أنه إذا أراد أن يحفظ إنساناً يحفظه بأقل الأسباب، وأحياناً يدمر إنساناً بأتفه الأسباب، وإن نقطة دم لا يزيد حجمها على رأس الدبوس تتجمد في مكان من الدماغ تصيبه بفقد وعيه كلياً، إذا نحن في قبضة الله عز وجل.

وحين أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بالهجرة إلى يثرب جاء ﷺ متقنعاً إلى منزل أبي بكر رضي الله عنه في وقت لم يعتد أن يزوره فيه في نحر الظهر، وهو أشد ما يكون في حرارة النهار، وقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه وقائع ما جرى فقال:

((فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر، في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا بها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي))

الإسلام حبٌّ ونصرةٌ وحسن معاملة

إخواننا الكرام، الإسلام حب، فإذا فرغت الإسلام من الحب فهو نصوص، وأفكار وأدلة، وحجج فقط، غدا كجثة بلا روح، انظر إلى وردة صُنعت من البلاستيك تضعها في البيت أياماً معدودة، ثم تملّ منها، وقد تلقى في القمامة، أما الوردة الطبيعية فلا تشبع من النظر إليها، ولا من شمها، لأنه فيها حياة.

إخواننا الكرام، تصور بيتاً فيه براد، غسالة، مكيف، سخان، كل الأجهزة الكهربائية من دون استثناء، و دون أن أذكرها جميعاً، لكن ليس فيه كهرباء، كلها لا معنى لها إطلاقاً، مملّة، تأخذ حجماً، نحن في أمس الحاجة إليه، فإذا سرت الكهرباء في البيت فكل آلة لها قيمة كبيرة جداً، صدقوا، ولا أبالغ: إذا كنت مؤمناً كان الهدف واضحاً، الآخرة واضحة، إيمانك قوي، تعرف حقيقة الكون، وكيف سُخر لك، تعرف حقيقة الدنيا، وكيف أنها دار عمل، وليست دار أمل، ودار تكليف لا دار تشريف، دار سعي، وليست دار جزاء

إن علمت الحقيقة تماماً، الزواج له معنى كبير جداً، أكبر من أن تحقق متعة كنت محروماً منها، أكبر بكثير، يقول سيدنا عمر رضي الله عنه: >> والله أقوم إلى زوجتي وما بي من شهوة إلا ابتغاء

ولد صالح ينفع الناس من بعدي <<، الزواج له معنى، والعمل تختار فيه نفع للمسلمين، فينقلب عملك عبادة، وأنت في معملك، وأنت في مكتبك، وأنت في دكانك وأنت في صفك، وأنت أستاذ في الجامعة، وأنت مهندس، لأن الحرفة التي تكون في الأصل مشروعة، وتسلك فيها الطرق المشروعة، وتبتغي بها كفاية نفسك وأهلك وخدمة المسلمين، ولم تشغلك عن واجب، ولا عن فرض، ولا عن عمل صالح، ولا عن طلب علم، انقلبت حرفتك إلى عبادة، هكذا المسلم، يسعد في عمله، لأنه عبادة، فإذا جلس مع زوجته وأولاده يسعد بهذا الجلوس لأنه عبادة، وإذا أخذ أهله نزهة هذه النزهة عند الله عبادة لأنه متن العلاقة مع زوجته وأولاده، وخفف عنهم أعباء الحياة، ولا يقطعون وادياً، ولا يطنون موطاً، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح.

فإذا سرت الكهرباء كانت الأجهزة كلها ثمينة، وكلها لها فائدة، أما من دون إيمان فلا حياة، بل كانت الحياة مملة، حياة فيها ضجر، فيها قلق، فيها إحباط، فيها تشاؤم، فيها خوف، فيها رعب.

الإذن بهجرة النبي إلى المدينة

السيدة عائشة قالت: >> بينما كنا نحن يوماً جلوساً في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقناً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال له أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، يعني لأمر جليل، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قال: فإني قد أذن لي في الخروج، بالهجرة، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال عليه الصلاة والسلام: نعم، يعني أنا صاحبك بالهجرة.

والله أيها الإخوة، مرة كنت في عقد قران، وقام خطيب فقال كلمة جيدة، لكن فيها كلمة هزت أعماق أعماقي، النبي عليه الصلاة والسلام يقول لسيدنا معاذ: والله يا معاذ إني لأحبك، هذا وسام شرف، أن يحبك أهل الإيمان، وأحياناً الفسقة يحبون بعض الناس، لأنهم على شاكلتهم، فقل لي من يحبك أقل لك من أنت، هل يحبك أهل الإيمان؟ هل يحبك المقربون إلى الله؟ هل يحبك المنصفون؟ هل يحبك العاملون في طاعة الله عز وجل، قال: والله يا معاذ إني لأحبك، أما سيدنا سعد فقال:

((اِرْمِ سَعْدُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي))

[أخرجه مسلم عن علي وعن سعد بن أبي وقاص]

هذا خالي أروني خالاً مثل خالي، كان يداعبه، وما فدى أحداً بأمه وأبيه إلا سعد بن أبي وقاص.

سيدنا عمر الفقيه العملاق، قال لسعد بعد وفاة رسول الله: >> يا سعد، لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له <<.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿

(سورة الحجرات)

فقال أبو بكر: الصحبة؟ يعني هل أكون صاحباً لك؟ بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: نعم، فقال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، فقال عليه الصلاة والسلام: بالثمن، قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، قطعت نطاقها قطعتين على شكل سريفة، وربطت بها فم الجوربين، الذين فيهما غذاء الصاحبين.

أيها الإخوة، ألك أعمال تذكرها من حين لآخر تعتز بها، وتقول: يا رب اجعلها في ميزان حسناتي؟ ألك أعمال؟ ألك بطولات؟ ألك إنفاق؟ ألك خدمة للناس؟ ألك موقف فيه بطولة؟ فيه جرأة، فيه ورع، فيه زهد، هذا الذي يمكن أن تعتد به يوم القيامة إذا وقفت للحساب بين يدي الله عز وجل.

لو أن الله سبحانه وتعالى أوقف أحدنا يوم القيامة، وقال: يا عبدي؟ ماذا فعلت من أجلي؟ ماذا يقول أحدنا؟ يا رب، تزوجنا، لك الزواج، اشترينا بيتاً، ذهبنا إلى النزاهات، أقمنا سهرات رائعة جداً، تحدثنا في السياسة طوال السهرة، وسمعنا الأخبار، وحللنا، والسهرة كانت مختلطة، ماذا فعلت من أجلي؟ هل واليت في ولياً؟ هل عاديت في عدواً؟ هل بذلت من مالك؟ هل بذلت من وقتك؟ هل بذلت من جاهك؟.

ماذا أعددتنا ليوم القيامة من عمل صالح؟

إخواننا الكرام، هذا أخطر موضوع ماذا أعددتنا يوم القيامة إذا قيل لنا ما عملكم يقول عليه الصلاة والسلام:

((إذا مات الإنسان انقطع عمله))

[أخرجه مسلم عن أبو داود، الترمذي، النسائي، عن أبي هريرة]

هل تعلمون من له الويل؟

((إذا مات الإنسان انقطع عمله))

الويل لمن؟ لمن ليس له عمل، هذا في الذي له عمل ينقطع، فكيف بالذي ليس له عمل، لكن البطولة أن يكون لك عمل لا ينقطع، أن تكون أمة، أن تكون في قلوب أمة، أن تدع أثراً تبكي عليه السماء والأرض، بدليل أن الله ﷻ يصف أهل الدنيا الكفار بأنهم حينما يموتون لا تبكي عليهم السموات والأرض، أما المؤمن بالمعنى المخالف فتبكي عليه السماء والأرض.

أريد قبل أن أختتم الدرس أن نكون متيقنين أن يكون حجمنا عند الله بحجم عمله الصالح. حينما غرقت الباخرة العبارة قبل أسابيع، ومات ألف رجل وامرأة قرأت في صحيفة حينما كنت في العمرة بمقابلة مع أحد الذين نجوا، لفت نظري أن هذا الناجي وهو يصارع الموت ثلاثة أيام شريط حياته رسم أمامه حدثاً حدثاً، موقفاً موقفاً، كلمةً كلمةً ، حركةً حركةً، سَكَنَةً سَكَنَةً، هذا حق، الإنسان قبل أن توافيه المنية يذكر كل أعماله من دون استثناء.

يا قبيس، إن لك قريباً تدفن معه وهو حي، ويدفن معك وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك.

أخطر شيء عملك، أنت رجل، كنت تاجراً، هل كنت صادقاً؟ هل كنت أميناً هل نصحت المسلمين؟ أنت كنت محامياً، هل قبلت دعوى أنت واثق أنها لن تتجح؟ ولكنك كسبت الوقت، وكسبت أتعاباً لا تستحقها، أنت طبيب، هل كبرت الأمر على المريض أم كنت معتدلاً في وصف مرضه؟ بكل حرفة في آلاف الطرق الغير مشروعة في كسب المال في أية حرفة.

وجوب الاستفادة من السيرة النبوية

فلذلك أيها الإخوة، نحن يجب أن نستفيد من هذه السيرة، الحياة مواقف، الحياة مواقف بطولية، الحياة التزام، الحياة صبر، الحياة تضحية، من لم يكن له مثل هذه الأعمال هو ميت كحي، وحي كميت. ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميت الأحياء. والله عز وجل وصف أهل الدنيا بأنهم.

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾

(سورة النحل الآية: 21)

قد يكون ضغطه 8 . 10 . 8 . 12 . هذا أفضل ضغط، ونبضه 70 . وفحص دمه فحصاً كاملاً، فكان كله طبيعياً، وهو عند الله ميت، لأنه ليس له عمل صالح له، والغنى والفقر بعد العرض على الله.

والحمد لله رب العالمين

الدرس (06) : قصة الهجرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

القوة الإدراكية

أيها الإخوة الكرام، لا يغيب عنكم أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان قوة إدراكية هذه القوة الإدراكية تقتضي أن تبحث عن الحقيقة، فمجرد أنك تبحث عن الحقيقة فأنت تنتمي إلى صنف البشر، الذين كرمهم الله عز وجل قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا

تَفْضِيلًا﴾

(سورة الإسراء)

لأن الله كرمك بالقوة الإدراكية ؛ إذاً هي الحاجة العليا عندك، فما لم تُلَبَّ هذه الحاجة يسقط الإنسان من هذا المستوى الرفيع الذي كرمه الله به، وأنت حينما تأتي إلى بيت من بيوت الله تأتي كي تتعرف إلى الإنسان المكرّم الذي جعله الله سبحانه وتعالى على رأس البشرية مقاماً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((سَلُوا اللَّهَ لِيِ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا))

[رواه النسائي عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ]

ونحن في الصلاة عقب الأذان نقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة، لأن النبي ﷺ كان قمة البشر، وجعله الله قدوة لنا وأسوة، من هنا كان من الواجبات الحتمية على كل منا أن يعرف سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، لماذا ؟ لأن الله عز وجل يقول:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(سورة الأحزاب الآية: 21)

فكيف يكون النبي أسوة حسنة لنا، ونحن لا نعرف سيرته ؟ وهذا الذي ذكرته من قبل ما لا يتم الفرض به فهو فرض، وما لا يتم الواجب به فهو واجب، وما لا تتم السنة به فهو سنة، فإذا كان كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب وقد قال الله عز وجل:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

(سورة الحشر الآية: 7)

إذا فمعرفة سنة النبي القولية فرض عين، وما دام الله عز وجل يقول:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(سورة التوبة)

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

كيف يكون النبي لنا أسوة حسنة ما لم نعرف سيرته؟

السؤال كيف يكون النبي ﷺ لنا أسوة حسنة ما لم نعرف سيرته؟.

إذاً مع درس جديد من دروس فقه السيرة النبوية.

وصدقوا أيها الإخوة، لو لم يكن كتاب ولا سنة لكانت سيرة النبي ﷺ بأبعادها ودلالاتها كتاباً وسنة، إلا أن السيرة العملية تتميز بأنها حدية في الاستتباط، فالإنسان قد يقول كلمة وقد تؤول يمناً ويسرة، أما إذا سلك سلوكاً فالسلوك حدي، فإذا ألقى عليكم إنسان محاضرة في الحجاب يا ترى هل يعد الوجه عورة أم ليس بعورة ؟ ماذا قال ؟ أما إذا رأيته مع زوجته، وقد سترت وجهها ؟! هذا موقفه، الموقف العملي حدي، والموقف الكلامي يحتمل التأويل.

لذلك قال بعض العلماء: إن سيرة النبي ﷺ العملية أصدق في فهمه لكتاب الله من أقواله، لأن أقواله تحتل،
مثل:

إذا قال الله عز وجل:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾

(سورة الشمس)

قد يتبادر إلى الذهن أن الله خلق فيها الفجور، نعوذ بالله من هذا المعنى، لكن الآية تعني أن الله سبحانه وتعالى
فطر النفوس فطرة عالية جداً، بحيث لو أن النفس البشرية أخطأت لعلمت أنها أخطأت من دون معلم، تعرف
ذاتياً أنها أخطأت، ألهمها أنها فجرت حينما تفجر، وألهمها أنها اتقت حينما تتقي، هذا المعنى.

فدائماً النص يحتاج إلى تأويلات.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾

(سورة يونس الآية: 39)

فأنت مثلاً تقرأ قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ﴾

(سورة السجدة الآية: 13)

(لو) حرف امتناع لامتناع، لو جنتني أكرمتك، امتنع إكرامي لك بامتناع مجيبك إلي.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

(سورة السجدة)

هذه الآية ينبغي أن تسأل عنها أهل الذكر، وأهل الذكر هم أهل القرآن، قال تعالى:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(سورة النحل)

ما معنى الآية ؟ الإنسان دائماً وأبداً يحاول أن يمحو خطاه لغيره، كل شيء سلبي في حياة الإنسان يقول لك: قضاء وقدر، هكذا أراد الله عز وجل، هذه كلمة حق أريد بها باطل.

والمعنى: يا عبادي، إذا زعمتم أنني أجبرتكم على المعاصي والآثام، وأنها من قضائي وقدري فأنتم مخطئون، لو أنني أجبركم على شيء ما لما أجبرتكم إلا على الهدى.

ولو شئنا أن نلغي اختياركم، وأن نلغي تكليفكم، وأن نسلبكم حريتكم، وأن نجبركم على شيء ما، ما أجبرناكم إلا على الهدى،

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾

هذا هو المعنى الصحيح، لكن الذي تزعمون أن أخطאתكم من إجبار الله لكم فأنتم واهمون،

﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

أي لأحاسبكم حساباً عسيراً على ما تقترفونه من آثام، وما تتهمون به ربكم أنه أجبركم على ذلك، هذا المعنى. لذلك النص يحتاج إلى تأويل، لكن الفعل لا يحتاج إلى تأويل الفعل حدي، لذلك كان اختيار هذه الدروس فقه السيرة النبوية.

أيها الإخوة، أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

وقل رب ادخلي مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق

((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْهَجْرَةِ، فَتَزَلَّتْ عَلَيْهِ: وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ

وَأَجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا))

﴿ وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾

(سورة الإسراء).

ألا يخطر في بالكم أيها الإخوة أن كلام الله معجز، وإعجازه في إيجازه ؟ فلم قال الله عز وجل:

﴿ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾

يعني: يا رب اجعلي صادقاً، كلمة واحدة، أعمال لا تعد ولا تحصى تدخلها صادقاً، وتخرج منها غير بصادق، لست بصادق، فالبطولة لا في الدخول بل في الخروج.

لذلك مرة معاوية بن أبي سفيان التقى بأحد دهاة العرب الكبار عمرو بن العاص، فقال له: يا عمرو، ما بلغ من دهائك ؟ قال: والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، فقال له معاوية: لست بداهية، أما أنا والله لا أدخل مدخلاً أحتاج أن أخرج منه، هذا مستوى أرقى.

إذا:

﴿ رَبِّ أَدْخِلْنِي ﴾

تقول: أنا إذا تزوجت، سأقيم الإسلام في بيتي، سأحجب زوجتي، سأربي أولادي، سأنشئهم على طاعة الله، فإذا دخلت إلى عالم المرأة، وحملتك زوجتك على معصية تقول: ما بيدنا شيء، دخلت مدخل صدق، لكنك لم تخرج مخرج صدق.

تقول: سأنشئ مستشفى هدفه معالجة الفقراء والمساكين، بعد أن تشعر بقيمة المال الذين دخلوا هذه المستشفى تأتيتهم الجلطة من الفاتورة، دخلت مدخل صدق، لكن لم تخرج مخرج صدق.

إخواننا الكرام، صدقوا أن طريق القمة صعب جداً، لكن النزول من القمة إلى الحضيض سهل جداً، إذا كان الطريق إلى القمة طريقاً فيه أكمات، وصخور، وغبار، و حر، وجهد كبير، والطريق من القمة إلى الحضيض زلق، هو طريق الغرور، لذلك البطولة لا أن تصل إلى القمة، بل أن تبقى فيها، لا أن تصل إلى المنبر، بل أن تبقى فيه، لا أن تصل إلى هذا المكان، بل أن تبقى فيه باستمرار. لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما فتح مكة دخلها مطأطأ الرأس تواضعاً لله عز وجل، حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره،

﴿ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأُخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ ﴾

إخواننا الكرام، النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه في بدر انتصروا، والآية تقول:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾

(سورة آل عمران الآية: 123)

أي أنتم مفتقرون إلى الله، النبي عليه الصلاة والسلام ومعه أصحابه الكرام وهم خيرة الخلق، ومعهم سيد الخلق لم ينتصروا في حنين، لماذا ؟ لأنهم قالوا:

((وَلَا يُغَلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قَلِيلَةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم في المستدرک عن ابن عباس].

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾

(سورة التوبة)

إخواننا الكرام، درس بليغ تحتاجه كل يوم، بل كل ساعة

إن قلت: الله، توَلَّكَ اللهُ، وإن قلت: أنا تخلَّى اللهُ عنك، ولست أكرم على الله من أصحاب رسول الله، لست أكرم على الله من أصحاب النبي الذين باعوا حياتهم في سبيل الله، ومع ذلك لم ينتصروا، فحينما تعتر بقوتك أو بمالك، أو بنسبك، أو بمنصبك يتخلى اللهُ عنك، وحينما تفتقر إلى الله يتولاك بالرعاية، لذلك قبل أن تقدم على أي عمل، قبل أن تقدم مشروعاً، قبل أن تقابل مسؤولاً قبل أن تقف موقفاً عصياً قل: اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين، تبرأت من حولي وقوتي وعلمي، والتجأت إلى حولك وقوتك وعلمك، يا ذا القوة المتين، هذا معنى قوله تعالى حينما أمر بالهجرة :

﴿ رَبِّ اذْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَاُخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاَجْعَلْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾

انطلاق النبي إلى غار ثور بصحبة أبي بكر: دروس وعبر

وقد انطلق النبي عليه الصلاة والسلام إلى الغار من بيته حيث حاصره المشركون يريدون قتله، فلبس علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثوبه، ونام في مكانه، واخترق النبي ﷺ حصار المشركين دون أن يروه بعد أن أوصى علياً بأن يخبر أبا بكر أن يلحق به، فجاء أبو بكر وعلي نائم، وأبو بكر يحسب بأن نبي الله في بيته، فقال: يا نبي الله، فقال علي: إن نبي الله قد انطلق نحو بئر ميمون، فأدركه، قال: فانطلق أبو بكر فدخل معه في الغار، قال: وجعل علي يرمي بالحجارة كما كان يرمي نبي الله، وهو يتضور، فقد لف رأسه بالثوب لا يخرج حتى أصبح، ثم كشف عن رأسه فقالوا: إنك للنائم. توقعوا أن النبي في البيت. كان صاحبك نرمله فلا يتضور، وأنت تتضور، وقد استكرنا ذلك، إذا النبي خرج من بيته إلى غار ثور.

مرة ثانية للتذكير: الذي انتقل من مكة إلى بيت المقدس بلمح البصر لم ينتقل من مكة إلى المدينة بلمح البصر؟ لأنه قدوة لنا، هذا يذكرنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هاجر نهاراً جهاراً متحدياً، قال: من أراد أن تتكلمه أمه، أو أن يتيم ولده، فليلق بي إلى ذلك الوادي، وقد يسأل سائل: أيعقل أن يكون عمر بن الخطاب أشجع من رسول الله؟ الجواب: لا، وألف لا، ولكن عمر ليس مشرعاً، لكن النبي عليه الصلاة والسلام مشرع،

النبي مشرع، ويجب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

أمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه عامر بن أن يصحبهما في هجرتهما ليخدمهما، ويعينهما على الطريق، وحمل أبو بكر رضي الله عنه ثروته ليضعها تحت تصرف رسول الله ﷺ.

إخواننا الكرام، المال قوة، والمنصب قوة، والعلم قوة، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، لأن المؤمن القوي يحمل معك، والمؤمن الضعيف ينبغي أن تحمله، وفرق كبير بين من يحمل معك، وبين من تحمله، ولكن المؤمن الضعيف على العين والرأس، لكن لا بد من تعليق، وهذا التعليق نحن في أشد الحاجة إليه، اسمعوا:

إذا كان طريق القوة سالماً وفق منهج الله فينبغي أن تكون قوياً، لأن فرص العمل الصالح المتاحة للقوي ليست متاحة للضعيف، فالقوي بجرة قلم يحق حقاً، ويبطل باطلاً، يقر معروفاً ويزيل منكراً بجرة قلم، والضعيف هو يزاح من عمله بجرة قلم، وفرق كبير بينهما، لكن إذا كان طريق القوة سالماً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً، أما إذا كان طريق القوة على حساب دينك وقيمك، ومبادئك الضعف وسام شرف للإنسان.

لذلك الأهداف النبيلة لا يمكن إلا أن يختار لها الإنسان وسائل نبيلة، الوسيلة من جنس الهدف، أما عند الأعداء فالهدف يبرر الوسيلة، الغاية تبرر الوسيلة، عند المسلمين لا بد للهدف النبيل من وسيلة نبيلة، وإذا كان طريق الغنى سالماً وفق منهج الله فينبغي أن تكون غنياً، لأنك إذا كنت غنياً يمكن أن تنشئ ميماً، و مستشفى، ومعهداً شرعياً، وأن تزوج الشباب، وأن تربي الأيتام، وأن تكون لك أعمال كالجبال.

<< حبذا المال أصون به عرضي وأتقرب به إلى ربي >>.

يقول أحد العلماء: " مساكين أهل الدنيا، جاؤوا إلى الدنيا، وخرجوا منها، ولم يذوقوا أطيب ما فيها، أطيب ما فيها العمل الصالح ".

يا رب، لا يطيب الليل إلا بمناجاتك، ولا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك.

والله أيها الإخوة، هؤلاء الذين سمح الله لهم أن يعملوا الأعمال الصالحة هم في قمم السعادة، هؤلاء الذين سمح الله لهم أن يكونوا جنوداً للحق، هم في قمم السعادة، إذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون غنياً، أما إذا كان طريق الغنى سببه الكذب والاحتيال، وأن يبيع الإنسان دينه بعرض من الدنيا قليل الفقر وسام شرف لك، الأهداف النبيلة لا بد لها من وسائل نبيلة.

لذلك صهر النبي ﷺ لم يسلم، بقي مشركاً، وقد احتجزت بضاعته التي كانت معه في طريقه إلى مكة، ووقع أسيراً، أجارته زوجته، وكانت في المدينة، فالنبي أجاره، قيل له بحسب النظام القائم: إنك إذا أسلمت، فهذه البضائع تصبح ملكاً للمسلمين، على أساس دار الحرب ودار السلم في الحروب، لأن أموال المحارب هي غنائم، قال كلمة والله لا أنساها، قال: والله ما أحب أن أبدأ إسلامي بهذا، مغطى، ذهب إلى مكة، ووزع الأموال على أصحابها، وبرأ ذمته تماماً، ثم شهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، فالأهداف النبيلة يجب أن تسلك إليها الوسائل النبيلة، وقد ذكرت أسماء بنت أبي بكر أنها كانت خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم.

والله أيها الإخوة لو يعلم أصحاب الأموال كم يستطيعون أن يصلوا إلى درجات الجنة بأموالهم لما ترددوا لحظة.

لأن روح الميت ترفرف فوق النعش، تنادي الأهل، هكذا ورد في الأثر: " يا أهلي يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرّم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي ".

ورد في الأثر أيضاً: " أن الله يوقف عبداً أعطاه مالاً، يقول له: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال: يا رب لن أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، يقول الله له: ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، يسأل عبداً آخر أعطاه مالاً قال: عبدي، أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال: يا رب، أنفقت على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خيراً حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، قال الله عز وجل: عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك ".

إن الرجل ليعبد الله ستين عاماً، ثم يضر بالوصية فتجب له النار، يريد ألا يعطي البنات شيئاً، يخص ثروته الذكور، متوهماً بوحى من الشيطان أنك إذا أعطيت البنات انتقل المال إلى أسر غريبة، هل أنت أحكم من الله؟! النبي عليه الصلاة والسلام لم يسمح له بتوزيع الأموال، تولاها الله بذاته، الفرائض أين أحكامها؟ في القرآن الكريم.

ومكث النبي ﷺ والصدیق رضي الله عنه في الغار ثلاث ليال تمكن المشركون خلالها من اقتفاء آثارهم إلى الغار، وقد ذكرت كثيراً أن حكمة وصول المطاردين إلى الغار ليعرف العالم كله أن النبي ﷺ حينما أخذ بالأسباب لم يعتمد عليها، ولكنه اعتمد على الله، وهذا الموقف دقيق جداً، يجب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء فيما يبدو، ويجب أن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

العالم الغربي أخذ بالأسباب واعتمد عليها، وألهاها، فوقع بالشرك، والعالم الشرقي لم يأخذ بها مدعياً أنه متوكل على الله، وهذا ليس توكلًا بل تواكلاً، وقع في المعصية.

حينما تجري مراجعة للمركبة تامة، وتعتقد أنه لم يحدث حادث لأنك أجريت مراجعة تامة المكبح، والزيت، والعجلات، وتوهمت أنك في مأمن للحادث، أنت أخذت بالأسباب، واعتمدت عليها، لكن المؤمن يعتقد مع أنه أخذ بالأسباب لو أن الله أراد أن يؤدبه لألغيت الأسباب، لذلك الحكمة يجب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وبعد ذلك يا رب أنت الحافظ، أنت الموفق، أنت المسلم يا رب، طبعاً سهل جداً أن تأخذ بالأسباب، وتعتمد عليها، وسهل جداً ألا تأخذ بها، وأن تتوكل على الله، لكن البطولة أن تأخذ بالأسباب بشكل دقيق، ثم تتوكل على الله، وكأنك لم تأخذ بالأسباب.

الحالة الثالثة صعبة تحتاج إلى علم عميق، وإيمان دقيق.

إخواننا الكرام، هذا أخطر شيء يعاني منه العالم الإسلامي، ينتظر أن تقع معجزة، لن تقع معجزة، لأن المسلمين لم يأخذوا بالأسباب، لم يعدوا لعدو القوة التي أمرهم الله بها، فالأولى أن نأخذ بالأسباب إن أخذنا بها الآن تولنا الله عز وجل.

قال أحدهم: سأصلح العالم كله في عشر سنوات، العالم كله، القارات الخمس، الدول كلها، ومضت السنوات العشر، ولم يستطع أن يفعل شيئاً، قال: إذاً سأصلح بلدي في خمس سنوات، السنوات الخمس مضت، ولم يستطع أن يفعل شيئاً، قال: إذاً سأصلح مدينتي في سنتين، والسنتان مضتا، ولم يفعل شيئاً، قال: إذاً سأصلح بيتي في عام، مر العام، ولم يصلح البيت، قال: إذاً سأصلح نفسي أولاً، وقرأ قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

(سورة الرعد الآية: 11)

إخواننا الكرام، بالمناسبة ذكرت قضية أنا أراها حساسة جداً ولا أبالغ، مليون شيء يمكن أن تفعله في ظل هذه الظروف الصعبة، في ظل الضغوط، في ظل العقبات، في ظل حرب عالمية ثالثة أعلنت على المسلمين في شتى بقاع الأرض، يمكن أن تفعل مليون شيء دون أن تُسأل، دون أن تحاسب، ألا تستطيع أن تكون صادقاً؟ ألا تستطيع أن تكون أميناً؟ ألا تستطيع أن تكون متقناً لعملك؟ ألا تستطيع أن تعتني بأهل بيتك؟ ألا تستطيع أن تعتني بصحتك؟

ألا تستطيع أن تربي أولادك؟ كل هذه الأعمال بإمكانك أن تفعلها من دون أن تحاسب عليها، لكن يأتي إبليس ليزهدك بكل ما تستطيع، ويدفعك إلى ما لا تستطيع، هذا من تلبيس إبليس، يزهنا فيما نستطيع، ويقحمنا فيما لا نستطيع، هنا الإشكال.

لذلك قالوا: أقم أمر الله فيما تملك يكفك ما لا تملك، لكن ماذا تملك أنت؟ تملك نفسك، وتملك أسرتك، وتملك عمك، إذا كل مسلم أقام الإسلام في نفسه، وفي بيته، وفي عمله، وانتهى كل شيء.

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(سورة البقرة الآية: 286).

الذي تطمح إليه لا يستطيعه جميع الدول الإسلامية مجتمعة، تهمل ما أنت قادر عليه، وتحم إلى ما لا تستطيع أن تفعله، هذا من تلبيس إبليس، من تلبيس إبليس أن تنصب نفسك وصياً على المسلمين، تقيمهم، وتكفر من تكفر، وتبدع من تبدع، هذا أيضاً من تلبس إبليس، تحرك، اعمل، أقول لكم من القلب:

((انتهى عهد النوم يا خديجة))

[ورد في الأثر]

السيدة خديجة التمسّت من النبي أن يأخذ قسطاً من الراحة، فقال: يا خديجة انقضى عهد النوم، ونحن الآن ينبغي أن نقول: انقضى عهد النوم، ويجب أن نقول أيضاً: وانتهى عهد الكلام، نريد عهد العمل، لأن الطرف الآخر يريد إفقارنا، وإضلالنا، وإفسادنا، وإذلالنا، وإبادتنا.

والحمد لله رب العالمين

الدرس (07) : أهمية قصة الهجرة للمسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

الهدف من القصة القرآنية:

القصة توضيح للحقائق:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس فقه السيرة النبوية وقد ذكرت لكم من قبل أن القصة اعتمدها القرآن الكريم كأسلوب في توضيح الحقائق، فقال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة يوسف الآية: 111)

أي أن القصة إطار تعبيرى له تأثير بليغ، فالقصة فيها حوادث، وفيها شخصيات، فيها حوار، فيها تحليل، قد نفهم من القصة أضعاف ما نفهم من الكلام المباشر، لذلك كما أنها أداة تعبيرية عالية جداً مؤثرة جداً فينبغي أن يعتمد عليها الآباء، والمعلمون والمرشدون، والدعاة، كذلك قد تكون القصة أخطر أداة لتدمير المجتمع، هي سلاح ذو حدين، فحينما تصور القصة الرذيلة على نحوٍ نعجب بها فإن مجتمعاً بأكمله قد يدمر بسبب هذا الإطار التعبيري، لكن حينما نقرأ قصة سيد الأنبياء، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، حينما نقرأ قصة القم نسمو إليهم، لذلك

يبين الله للنبي عليه الصلاة والسلام أنه يثبت قلبك يا محمد بسماع قصة نبي دونك:

﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

(سورة هود الآية: 120)

إذاً: إذا كان قلب سيد الخلق، وحبیب الحق یزاد ثبوتاً بسماع قصة نبي دونه فلئن یزاد إیماننا، ویزاد قرینا من الله، وفهمنا لهذا الدين بسماع قصة سيد المرسلین.

القصة حقيقة مع البرهان عليها:

ملاحظة ثانية أضعها بين يدي إخواننا الكرام، وهي أنا القصة حقيقة مع البرهان عليها، أنها حدثت وقع حقيقة، وقد أكدت بوقوعها، لذلك هناك تجاذبات بين من يقول: هذه مثالية لا جدوى منها، وهذه واقعية حقيقية، جاء الإسلام بمثالية الواقعية، أو بواقعية مثالية، المثالية تُتهم بأنها حالمة، والواقعية تُتهم بأنها مقينة، أما أن يأتي دين عظيم فيجعل من الواقع مثالياً، ويجعل من المثالية واقعاً فهذا الذي حصل.

لو قرأتم سيرة النبي عليه الصلاة والسلام . ونحن نقرأها . لو جئتم أن هذا الإنسان بشر، لولا أنه تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، ونحن الآن مع إنسان يعيش معنا، يتحمل الضغوط نفسها، والمغريات نفسها، والعقبات نفسها، والصوارف نفسها، وينجو بدينه وإيمانه، هذا إنسان بطل، لكن تزداد قيمة بطولته بأنه يعيش معنا، ويتحمل الظروف نفسها، والمغريات نفسها، لذلك القصة دائماً مؤثرة جداً.

أحياناً قد تلقي على ابنك نصائح كثيرة جداً في الاستقامة، فإذا وصل إلى سمعه قصة إنسان لم يستقم فُدمر، فهذه القصة أبلغ من ألف محاضرة، لذلك أنا أهيب بالآباء وبالمعلمين والدعاة إلى الله والمرشدين أن يعتمدوا القصة في توجيههم.

ركب مرة معي إنسان في المركبة، ولا يجمعني معه شيء، طلب أن أوصله إلى مكان قرب بيتي، قلت له: تفضل، أريد أن أعظه موعظة بليغة بشكل غير مباشر، ذكرت له هذه القصة، قلت له: هناك إنسان له أرض شمالي جدة، وهذا الإنسان لعله من البدو، لما توسعت جدة كثيراً، وامتدت طولاً وعرضاً اقترب البناء من أرضه، فنزل إلى مكاتب عقارية ليبيع أرضه متوهماً أن سعرها ارتفع كثيراً، المكتب الذي اشترى منه الأرض اشتراها بربع ثمنها، كان محتالاً كبيراً، هو صدق، وباعها بهذا الثمن البخس، وأنشئ بناء على هذه الأرض من 12 طابقاً، والذين اشتروا هذه الأرض شركاء ثلاثة، الأول وقع من سطح البناء فنزل ميتاً، والثاني دهسته سيارة، انتبه الثالث، فبحث عن صاحب الأرض ستة أشهر حتى عثر عليه، وأعطاه أمثال القيمة التي دفعها، فقال له هذا البدوي باللغة البدوية: ترى أنت لحقت حالك، هذه قصة.

إن الله بالمرصاد، فإن لم تستجب فهناك تدمير.

أنا أقول لكم: القصة لها تأثير جداً فاعتمدها في توجيه أطفالكم، واعتمدها في توجيه شبابكم، ولعل قصة واحدة أبلغ من مئة محاضرة، والله عز وجل يقول:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

قصة النبي في غار ثور:

حينما تقرأ أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق دخل إلى غار ثور، ومعه الصديق، وقد أخذ بكل الأسباب من دون استثناء، لم يدع ثغرة إلا سدّها، لم يدع احتمالاً إلا وغطاه، لم يدع سبباً إلا أخذ به، وقد علمنا درساً لا يُنسى في أخذ الأسباب، ويكاد المسلمون اليوم يدفعون ثمناً باهظاً لأنهم لم يأخذوا بالأسباب، والحقيقة أنه ينبغي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، ومن السهل جداً أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد عليها، ومن السهل جداً أن تتوكل على الله زاعماً أنك متوكل، وليس هذا هو التوكل، لكن البطولة أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، فالنبي e أخذ بالأسباب، كما بينت لكم من قبل، فقد اختار خبيراً للطريق، وذهب مساحلاً على عكس توقع الخصوم، وقبع في الغار أياماً ثلاثة، وهياً من يأتيه بالأخبار، ومن يأتيه بالطعام والشراب، ومن يمحو الآثار، ومع ذلك وصلوا إليه. أيها الإخوة، المعنى الدقيق من وصول المطاردين إليه يكمن في أن النبي عليه الصلاة والسلام لو أنه أخذ بالأسباب، واعتمد عليها لانهارت قواه حينما عثر عليه المطاردون، ولكنه أخذ بالسباب تعبداً لله عز وجل، فلما وصلوا إليه قال:

((يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنَنْكَ بِإِنِّي لَأَلَّهُ تَائِبُهُمَا))

[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ]

إذا أنت مكلف أن تأخذ بالأسباب، وأن تتوكل على رب الأرباب.

الرواية هنا: ومكث النبي ﷺ في الغار ثلاث ليال تمكن المشركون خلالها من اقتفاء آثارهم إلى الغار، وقد بكى الصديق.

إخواننا الكرام، أقول هذا كثيراً: عندنا مساجد ضخمة جداً، عندنا كتب ومؤلفات وجامعات ومؤتمرات، ومهرجانات، عندنا كل شيء، لكن ينقصنا الحب، لكن المسلمين في الأعم الأغلب لا يحب بعضهم بعضاً، وهذا سبب ضعفهم، وهذا سبب فرقتهم.

فلذلك الصديق بكى، وأنت هل لك ولاء لإنسان ؟ هل من إنسان تقدم كل ما تستطيع لعل الإسلام يقوى بكما ؟ هل بينكما تعاون وتعاطف ورسالة وجدانية ؟ لكن النمط السائد أن كل إنسان يشكك فيه، وكل إنسان يفسر عمله تفسير سيئاً، وكل إنسان تضعف الثقة به، وكل إنسان يفترى عليه، لذلك من علامات آخر الزمان أنه يكذب الصادق، ويصدق الكاذب، يخون الأمين، ويؤتمن الخائن، لا داعي إذا ذهب إنسان إلى بلاد الغرب ليبين للطرف الآخر حقيقة النبي عليه الصلاة والسلام، تقوم عليه الدنيا ولا تقعد، ما فعل ؟ هو مجتهد، والمجتهد بين الأجر والأجرين، نحن مشكلتنا أنه لا يحب بعضنا بعضاً، وإن بأسنا بيننا، وهذا كلام مختصر مفيد:

هذا الإسلام توقيفي من عند الله عز وجل، ومعنى توقيفي أنه لا يزداد عليه ولا يحذف منه، فالزيادة عليه تعني اتهامه بالنقصان، والحذف منه تعني اتهامه بالزيادة، الآن إن أضفنا عليه أصبحنا شيعياً وأحزاباً وفرقاً، وتخاصمنا، وتجادلنا، وتقاتلنا، وصار بأسنا بيننا، وإن حذفنا منه ضعفنا وأصبحنا في مؤخرة الأمم، فهذا الدين لا يضاف عليه ولا يحذف منه، وكل ما يقال عن التجديد في الدين، وهي كلمة رائجة جداً اليوم، لماذا هي رائجة ؟

لأنه ما يعقد من مؤتمرات لتجديد الخطاب الديني هدفها إلغاء الخطاب الديني، أو هدفها الالتفاف على الخطاب الديني، وتفرغته من مضمونه، ليغدو شكليات وقضايا لا يعنى بها أكثر المجتمع، لذلك احفظوا هذه الكلمة: التجديد لا يعني إلا شيئاً واحداً، أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه، أصل الدين من عند الله، كماله مطلق توقيفي، كامل نوعاً تام عدداً، فالتجديد يعني أن تنزع عن الدين كل خرافة، وكل دجل، وكل بدعة ليست منه، هذا التجديد.

عندنا في دمشق بناء منطقة الحجاز، قبل سنوات جُدد، ضُرب بالرمل، و أزيلت الطبقة السوداء المتراكمة عليه من عشرات السنين، فعاد للحجر نصاعته وجماله، هذا التجديد، لا أن تضيف غرفة؟ هذا ممنوع، لا أن تضيف طابقاً ؟ هذا ممنوع، تحذف غرفة ؟ وهذا ممنوع أيضاً.

الدين توقيفي، وتجديده يعني أن أنزع عنه كل ما علق به مما ليس منه.

إن الصديق بكى، وأريد أن أستنبط بعض الحقائق.

لك أخ في الله تحبه جداً؟ لك أخ في الله تعينه كثيراً؟ يؤلمك ما يؤلمه؟ يفرحك ما يفرحه، دققوا: علامة المنافق أنه يفرح بمصائب المؤمنين، وعلامة المنافق أنه يتألم لخير أصاب المؤمنين، الدليل:

﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾

(سورة آل عمران الآية: 120)

لمجرد أن تفرح بمصيبة أمت بالمؤمنين فأنت في خندق النفاق، ولمجرد أن تتألم لخير أصاب المؤمنين فأنت أيضاً في خندق النفاق، وهذا مقياس دقيق تمتحن به نفسك.

إخواننا الكرام، والله الذي لا إله إلا هو لا تكون مؤمناً حقاً إلا إذا فرحت لخير أصاب أخاك كما لو أنه أصابك أنت، وتتألم لمصيبة حلت بأخيك كأنها حلت بك، هذا هو الدين.

التعليق على كلمة بكى:

لقد بكى الصديق خوفاً على سلامة النبي ﷺ، النبي الكريم قال عن الصديق:

((ما ساءني قط فاعرفوا له ذلك))

قال عن الصديق . النبي وفي أيضاً . .

((ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر))

((لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح))

[أخرجه ابن عدي من حديث ابن عمر ؛ ورواه البيهقي]

وقد بكى الصديق خوفاً على سلامة النبي ﷺ، وهو يرى أقدامهم عند فم الغار، وقال: يا نبي الله، لو أن أحدهم طأطأ بصره لرأنا، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟))

احفظوا هذه الكلمة: إذا كان الله معك فمن عليك؟ يخدمك عدوك، وإذا كان الله عليك فمن معك؟ يتطاول عليك ابنك، إذا كان الله معك يخدمك عدوك، وإذا تخلى عنك يتطاول عليك أقرب الناس إليك.

وفي رواية قد ذكرتها لكم من قبل أنه قال له: لقد رأونا، فقال عليه الصلاة والسلام: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:

﴿ وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

هل الإنسان مسير أم مخير؟

إخواننا الكرام، هناك موضوع دقيق جداً يحير بعض المؤمنين، الموضوع ينطلق من قول النبي ﷺ:

((إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعِينَ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))

[رواه أبو عيسى عن النّوّاسِ بنِ سَمْعَانَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ وَعَائِشَةَ وَأَبِي ذَرٍّ]

الإنسان مسير؟ لا هو مخير، معنى الحديث: أنك إذا واجهت عدواً فلا تخف منه، هو بيد الله، إذا أراد الله أن ينصرك عليه ألقى هيبتك في قلبه، وإذا أراد الله أن يؤدبك به نزع هيبتك من قلبه، قلبه بيد الله.

كن مع الله تر الله معك و اترك الكل وحاذر طمعك

و إذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

كيف ما شاء فكن في يده لك إن فرق أو إن جمعك

في الورى إن شاء فظاً ذقته وإذا شاء عليهم رفعك

أنت حينما تعلم أن كل من حولك، وكل من هم دونك، وكل من هم فوقك، وأن كل قوى الأرض، وأن أصحاب الأسلحة الفتاكة بيد الله عز وجل، وما كان الله ليسلمك إلى غيره، ثم يأمرك أن تعبد، يقول الله عز وجل:

﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾

(سورة هود الآية: 123)

وما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله عائد إليه، هذه الثقة ترفع معنوياتنا، لأن المسلمين بفهم قاصر للأحداث التي ألمت بهم حصلوا حالة تشبه الإحباط، قال الله عز وجل:

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾

لكن بشرط:

﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة آل عمران)

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

(سورة آل عمران)

يصف الله ﷻ هذا الحدث في الغار بقول:

﴿ ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

(سورة التوبة الآية: 40)

أنواع معية الله: عامة وخاصة:

بالمناسبة أيها الإخوة، أريد أن أبين لكم أن معية الله معيتان، معية عامة ومعية خاصة.

1 - المعية العامة

المعية العامة ؛ أي الله ﷻ مع كل الخلق بعلمه، مع الكافر، مع الملحد مع القاتل، بعلمه.

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾

(سورة الحديد الآية: 4)

هذه معية عامة يشترك بها كل الخلق، لكن الله حينما يقول:

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة الأنفال)

﴿ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

(سورة التوبة)

هذه معية خاصة، تعني معية التوفيق، معية التأييد، معية الحفظ، معية النصر لذلك إذا كان الله معك فمن عليك؟ المعية الخاصة لها ثمن، المعية العامة بلا ثمن، لأن الله مع كل مخلوق، أما الخاصة:

﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(سورة المائدة الآية 12)

هذا ثمن المعية، وهناك ظروف القلق والخوف والضغط والتهديدات والمشكلات لا يعلمها إلا الله نحن في أمس الحاجة إلى أن نكون في معية الله عز وجل.

وقد أن أخفقت قريش في العثور عليهما، فأعلنت حينها عن مكافأة لمن يقتلها أو يأسرها.

الحكمة من وجود مؤمن وكافر:

إخواننا الكرام، مرة ذكرت وأعيد، وأكرر:

كان من الممكن أن يكون الكفار في كوكب، والمؤمنون في كوكب، لا حروب، ولا نفاق، ولا كفر، ولا بدر، ولا أحد، ولا الخندق، ولا اجتياح، ولا احتلال، المؤمنون في كرة، والكفار في كرة، أو كان من الممكن أن يكون المؤمنون في قارة، والكفار في قارة، آسيا وإفريقيا مؤمنون، أمريكا وأستراليا كفار، وكان من الممكن أن يكون المؤمنون في حقبة من ألف إلى ألف وخمسمئة، فقط، الخمسمئة إلى الألفين فيها مؤمنون، ولكن الله شاءت حكمته أن يكون المؤمنون مع غير المؤمنين في أماكن واحدة، إذاً هناك معركة بين الحق والباطل معركة أزلية أبدية، أقول هذه العبارة الحديثة: المؤمن الصادق يحترم قرار الله عز وجل، لقد أراد الله أن يجمعنا، وأراد الله أن تكون معركة بيننا، هي معركة الحق والباطل، لأن الإيمان لا يقوى إلا بالتحدي، ولأن المؤمنين لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية، وقد سمح الله لنا أن نضحى من أجل جنة عرضها السماوات والأرض، ولأن الكفار عباد الله، لعلهم يهتدون مع المؤمنين، فيجب أن تحترم قرار الله عز وجل، ومعركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية.

يقول أبو بكر رضي الله عنه أخذ علينا بالرصد فخرجنا ليلاً، يعني شرعوا بالتعبير الحديث بالحاسة السادسة، مراقبة شديدة، فانطلقا ليلاً، وقد تحدث أبو بكر عن بداية رحلة الهجرة فقال: أسرينا ليلتنا كلها، حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق فلا يمر أحد، حتى رُفعت لنا صخرة طويلة لها ظل، لن تأتي عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكاناً ينام فيه النبي ﷺ في ظلها، وجد صخرة كبيرة لها ظل، فمهد مكاناً لينام النبي عليه الصلاة والسلام، ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت: نم يا رسول الله، وأنا أنفض ما حولك، فنام، هذا هو الحب، وهذا أول ما وقع للنبي ﷺ في طريق الهجرة، وذكر أبو بكر خبر قدوم راعٍ مقبل إلى الصخرة يريد منها شيئاً مثل الذي أرادوا، أن ينام في ظلها، وعرف أبو بكر منه أنه رجل من أهل مكة ، ورضي أن يحلب لهم من شاة له، وطلب منه أبو بكر أن ينظف لهم الضرع قبل الحلب من أجل النبي الكريم، وكره أن يوقظ النبي ﷺ ليشرّب، فانتظره حتى استيقظ، فشرّب، ثم أمر بالرحيل.

إن هذه خدمة صادقة، خدمة محب، وكان عليه الصلاة والسلام يردف أبا بكر معه على راحلته، وكان إذا سأل أحد أبا بكر عن رسول الله: من هذا ؟ يقول: هذا رجل يهديني السبيل، وهذه كناية، أو تورية، أن تقول كلاماً له معنيين، فيفهم السامع المعنى الذي لا تريده، وأنت تضمّر المعنى الذي تريده، وفي كتب البلاغة مثل هذا كثير، كقول الشاعر:

يا سيداً حاداً لطفاً له البرايا عبيدُ أنت الحسينُ جفاكُ فينا يزيدُ

يعني أنت كالحسين، رسول الله، والذي أوقع الخلاف بيننا وبينك لسنا نحن، ولكنه يزيد.

يا سيداً حاداً لطفاً له البرايا عبيدُ أنت الحسينُ جفاكُ فينا يزيدُ

مديح البيت، هو أراد غير ذلك، أراد أنت الحسين، أنت لست حسناً، لكنك حُسين، تصغير، وجفاك فينا يزداد مع الأيام، يزيدُ فعل مضارع، أنت الحسينُ جفاكُ فينا يزيدُ، وفي البلاغة أنماط لطيفة جداً، وهذه تورية:

يا سيداً حاداً لطفاً له البرايا عبيدُ أنت الحسينُ جفاكُ فينا يزيدُ

مرة دخل إنسان على الحجاج، فقال له: أنت قاسط عادل، هذا مديح، قال لجلسائه: أتدرون ماذا قال لي ؟ قالوا: ماذا قال ؟ قال: قال لي: أنت ظالم كافر، كيف ؟ قال: [وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا] ، قال له: أنت قاسط، العادل مقسط، والظالم قاسط، عادل:

﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

(سورة الأنعام)

أَيُّ عدلت عن الإيمان إلى الكفر، قال لهم: قال لي: أنت ظالم كافر.

إذاً هو رجل يهديه السبيل، على سبيل التورية، ففهم السائل أنه يدلّه على الطريق، وأراد الصديق أنه رجل يهديه السبيل إلى الله، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((إن في المعارض لمندوحة عن الكذب))

[أخرج ابن عدي في الكامل والبيهقي في السنن عن عمران بن حصين]

أنت بهذا لم تكذب.

خطب أحدهم فتاة، سألوه: أين البيت؟ قال لهم: في حي مالكي فوافقوا مباشرة، من دون قيد أو شرط، ولا سألوا عن علمه، ولا عن عمله، في حي لبيت بالمالكي ثمنه 50 مليوناً، ثم تبين أن هناك شارعاً باسم شارع المالكي في منطقة بابيلا الريفية، هو ما كذب، لكن ورى، هذا اسمه في الفقه تدليسا، أن توهم السامع بشيء، وتقصد شيئاً آخر .

قال له: هو رجل يهديني السبيل، فيحسبه السائل دليلاً لطريقه، وهو يكني عن السبيل بسبيل الخير والهدى والصالح.

قصة سرقة بن مالك في مطاردته للنبي :

الآن الذي بقي علينا، والحقيقة أنّ هذه القصة قصة سرقة ترفع معنوياتنا جميعاً، لأن سرقة طمع بمئتي ناقة، وأراد قتل النبي عليه الصلاة والسلام، لكنه شعر أن هذا الإنسان ممنوع منه، قال له: يا سرقة، كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟

إن مثل هذا مثل رجلٍ ملاحق، وعليه مذكرة بحث، ومتهم بأنه من منظمة إرهابية، ولو اعتقل لقتل، قال له أحدهم: كيف بك إذا سكنت البيت الأبيض؟ هذا كلام غير معقول إطلاقاً. يا سرقة كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟ ثم لبس سوارى كسرى حقيقة.

إخواننا الكرام، في درس قادم إن شاء الله نتابع فقرات السيرة النبوية، ولكن أتمنى عليكم أن تتقلب هذه الاستباطات، وتلك الدروس والعبر من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام إلى منهج لنا.

مرة ثانية: السنة النبوية هي أقواله، وهي أفعاله، وهي إقراره، وهي صفاته ، وأبلغ شيء في السنة أفعاله، لأنها حدية الاستنباط، حدية لا تحتمل التأويل، لكن الكلام يحتمل التأويل، أما السلوك فلا يحتمل التأويل، فهي أصدق في التعبير عن فهمه للقرآن الكريم من فقرات سنته الأخرى، والسيرة قصة مشوقة، صحيح أن الأحداث تعرفونها جميعاً، لكن الجديد في هذا الدرس التحليل، نحن في حاجة أن نقرأ السيرة قراءة جديدة، قراءة مرتبطة بواقعنا، مرتبطة بحاجاتنا، مرتبطة بمشكلاتنا، مرتبطة بطموحاتنا، مرتبطة بآمالنا فالسيرة النبوية منهج، وكنت أقول دائماً: لو لم يكن في الإسلام كتاب وسنة لكانت سيرة النبي ﷺ وحدها كتاباً وسنة.

والحمد لله رب العالمين

الدرس (08) : قصة سرقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

دلالات ودروس من حادثة سرقة مع النبي :

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس فقه السيرة النبوية، وقد وصلنا في الدرس السابق إلى حديث سرقة، والحديث عن سرقة حديث ذو دلالات كثيرة، ذلك أن الإنسان حينما يهزم من داخله ينتهي، قد يهزم في دولة أو في معركة وهو واثق من نصر الله له فقصة سرقة تعلمنا دروساً كثيرة، أبرز هذه الدروس:

1 - وضعية النبي قبل الهجرة وتأمر الناس على قتله:

أن إنساناً وصلت دعوته إلى النهاية الصغرى إلى الحضيض، بعد أن خرج النبي عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة مهاجراً إلى المدينة، وبعد أن أخفقت قريش في ملاحقته وضعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً. رأيتم إلى ضعف كهذا الضعف، إنسان ملاحق، مهودر دمه، موضوع مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، ومع ذلك كانت ثقته بنصر الله لا حدود لها، أحياناً في هذه الظروف الصعبة التي تتداعى عليها الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، ورد في بعض الأحاديث الصحية:

((يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء، كغثاء السيل))

[رواه أبو داود عن ثوبان]

لا وزن لهم إطلاقاً، لم يا رسول الله؟ قال: يصيبكم الوهن.

((قيل: وما الوهن؟ قال: حُب الدنيا وكراهية الموت))

2 - صبر النبي والصحابة في مواجهة الضغوطات:

لذلك كان السلف الصالح الواحد بألف، ومع تأخر المسلمين وضعفهم الألف بألفٍ واحد كألف، وألف بألف.

للتوضيح:

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه جاءه استنجد من قائده خالد بن الوليد في معركة من المعارك، وطلب منه خالد 50 ألف جندي، لأنه معه 30 ألفاً واجهه 300 ألف، طلب النجدة، فإذا بالصديق رضي الله عنه يرسل له رجلاً واحداً، اسمه القعقاع بن عمرو ، ولولا أن التاريخ يؤكد هذه القصة لما أمكن أن تقبل، لما وصل القعقاع إليه قال: أين المدد؟ قال له: أنا المدد، قال له: أنت؟! قال له: أنا، ومعه كتاب، فتح الكتاب يقول الصديق رضي الله عنه: يا خالد، لا تعجب أن أرسلت إليك بواحد، فو الذي بعث محمد بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم، وانتصر.

3 - قانون النصر والتمكين: يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا:

مليار وثلاثمئة مليون، وفي رقم أحدث مليار ونصف، ليس أمرهم بيدهم ، وليست كلمتهم هي العليا، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، لأن القصة كلها كما يلي:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

(سورة النور الآية: 55).

هل نحن مستخلفون ؟ لا والله.

﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

(سورة النور الآية: 55)

هذا قانون:

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾

(سورة النور الآية: 55)

هل نحن ممكنون في الأرض؟ يرسمون النبي عليه الصلاة والسلام بصور لا يستطيع داعية في الأرض أن يصفها.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾

هل المسلمون آمنون؟ كل يوم تهديد، كل يوم وعيد، كل يوم عدوان، كل يوم قصف، يقول الله عز وجل:

﴿ يَغْدُونَنِي ﴾

(سورة النور الآية: 55).

إن صح التعبير أن الله ﷻ وتباركت أسماءه فريق أول، وأن المؤمنين فريق ثانٍ، الفريق الأول هو الله عز وجل، وعد بالنصر والتمكين والنصر والتطمين، وعلى الفريق الثاني أن يعبد، فإذا أخلَّ الفريق الثاني بما عليه فالله جل جلاله في حل من وعوده، ولا تتسوا أن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

كفانون للمؤمنين:

﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾

﴿ يَغْدُونَنِي ﴾

إخواننا الكرام، هذا في القرآن، أما في السنة فقد أُرِدْف النبي عليه الصلاة والسلام سيدنا معاذ بن جبل:

((يا معاذ، هل تدري ما حق الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. سأله ثانية وثالثة. قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. هذا واضح، ثم سأله: يا معاذ، هذا كلام دقيق جداً وفيه بشارة. يا معاذ ما حق العباد على الله إذا هم عبده؟ قال: ألا يعذبهم))

[متفق عليه]

أنشأ الله لنا حق عليه، الإله العظيم، خالق السماوات والأرض، أنشأ لك حقاً عليه، وقال طالبني به، حق العباد على الله إذا هم عبده ألا يعذبهم.

هناك شاهد آخر:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾

(سورة المائدة الآية: 18)

استنبط الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: أن الله تعالى لو قبل دعواهم أنهم أحبابه لما عذبهم، لأن الله لا يعذب أحبابه، فكل مؤمن مستقيم على أمر الله له عند الله حق ألا يعذبه، الآيات المطمئنة:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

(سورة الجاثية)

حياة الشاب المؤمن هي من تقدير الله عز وجل، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن يعامل شاب مستقيم عفيف ورع، مؤدٍ لعباداته كما يعامل شاب متقلت.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

5 - معية الله: عامة وخاصة:

أنا أطمئن الإخوة الكرام، الحضور والمستمعين، لكنني أبين أن معية الله عز وجل لها ثمن، معية الله معيتان معية عامة، ومعية خاصة، المعية العامة هو معنا بعلمه، هو مع كل إنسان، حتى الكافر حتى العاصي، حتى المنافق، حتى الفاجر، معهم بعلمه، ولكن الله عز وجل إذا قال:

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة الأنفال)

أي معهم بالتوفيق، والتأييد، والنصر، والحفظ.

أيها الإخوة، يقول الله عز وجل:

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾

(سورة التوبة الآية: 51)

ولم يقل: علينا.

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾

الذي أريد أن أوضحه في هذا الدرس أن النبي ﷺ ذهب إلى الطائف رده أهلها شر رد، كذبوه واستهزؤوا به، وأغروا صبيانهم أن يضربوه، وقال:

((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين إلى من تكلمي؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم تكن ساخطا علي فلا أبالي ولك العتبي حتى ترضى، غير أن عافيتك أوسع لي))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن جعفر]

كان قد خرج من مكة وقد أخرجه أهلها، ولما أراد أن يعود إليها يقول سيدنا زيد بن ثابت، وكان رفيقه في هذه الرحلة: يا رسول الله، كيف تعود إلى مكة وقد أخرجتك؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله ناصر نبيه))

[ورد في الأثر]

معنوياته عالية جداً، وفي الهجرة وقد أهدر دمه، ووضعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، ولحقه سارقة وأدركه، وغاصت قدما فرسه في الرمل، وعلم سارقة أن هذا الرجل ممنوع منه، قال: يا سارقة: كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟ يعني أنا سأصل إلى المدينة، وسأؤسس دولة، وأنشئ جيشاً، وسأحارب أقوى دولتين في الأرض، وسأنتصر عليهما، وسوف تأتيني كنوز كسرى، ولك يا سارقة سوار كسرى.

إخواننا الكرام، عدي بن حاتم بن ملك الغساسنة، وقعت أخته سفانة أسيرة عند النبي عليه الصلاة والسلام، ولها قصة، ولكن حينما أطلق النبي سراحها قالت: يا عدي، اذهب إلى هذا الإنسان الطيب، رأيت فيه خصالاً تعجبني، يطعم الفقير، ويفك الأسير، ويحمل الكل، فإن يكن نبياً فليسابق فضله، وإن يكن نبياً فلم تنزل في عز ملكه، عدي بن حاتم توجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، إلى المدينة، ودخل عليه، والنبي ﷺ سأله من الرجل؟ قال: عدي بن حاتم، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أنزلوا الناس منازلهم))

[أخرجه مسلم وأبو داود عن عائشة].

وكان عليه الصلاة والسلام يعرف قدر من حوله، فقام بي إلى بيته، وهذا عرف عالمي، إذا دعوت ضيفاً إلى بيتك فهذا تكريم ما بعده تكريم، يقول عدي بن حاتم، وهو لا يعلم أهذا الإنسان نبي أم ملك؟ يقول عدي بن حاتم: فقال: قم بنا إلى البيت، وانطلق بي إلى البيت، وإنه لعامد بي إلى البيت في الطريق لقيته امرأة ضعيفة، فكلمته، فوقف معها طويلاً يكلمها في حاجتها، فقال عدي: والله ما هذا بأمر ملك، فلما وصلا إلى البيت، إلى بيت رسول الله ﷺ يقول عدي: دفع إلي وسادة من أدم محشوة ليفاً، فقال: اجلس عليها، ما في بيتي غير هذه الوسادة، فقلت: بل أنت تجلس عليها، قال: بل أنت قال: فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض، قال إيه يا علي بن حاتم ألم تكن ركوسياً . دين بين النصرانية والصابئة . قال: بلى، قال أو لم تكن تأخذ في قومك بالمرباع؟ تأخذ ربع أموالهم؟ قال: بلى، قال: فإن ذلك لم يكن يحل في دينك، فانتبه عدي، قال: فعلت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل.

الآن ثلاثة أسئلة وجهها النبي عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم، وكأن النبي ﷺ معنا في هذا الزمان، إيه يا عدي بن حاتم، يعني تكلم، ثم قال له: لعله يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وإيم الله ليوكثن أن تسمع بالمرأة في أرض بابل تحج البيت على بغيرها لا تخاف، يعني سوف ينتصر، وسوف يؤسس المسلمون دولة عظيمة تقضي السلام والأمن على كل البقاع، ولعله إنما يمنعك يا عدي من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم من فقرهم، وإيم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله يا عدي، إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم الآن:

هناك فقر في المجتمع الإسلامي، وأعداء المسلمين العالم كله، كثرة العدو، والفقر، وما ترى من تشرذمهم، وتفرقهم.

ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، الأقياء ليسوا مسلمين، الأقياء من الطرف الآخر، ولقد عاش عدي حتى رأى هذه البشارات الثالث قد حقت.

أرأيت إلى التفاؤل؟ هدفى الوحيد من قصة سراقاة أن ترتفع معنويات المسلمين الله لا يتخلى عنهم، لكنه يعالجهم، نحن في العناية المشددة، وهذه نعمة ما بعدها نعمة تماماً كما لو سأل مريض قد أصيب بورم خبيث منتشر في كل جسمه، سأل الطبيب: ماذا آكل؟ وما الأكلات التي تمنعني أن أكلها؟ يقول له الطبيب: كُلْ كُلَّ شَيْءٍ، لأن أمره انتهى، لذلك:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾

(سورة الأنعام)

فرق كبير بين أن تكون في العناية المشددة، وبين أن تكون خارج العناية المشددة، فالنبي عليه الصلاة والسلام تفاعل أن يستتب الأمن والنظام في ربوع العالم الإسلامي، وتفاعل للمسلمين أن يفتنوا حتى يفيض المال فيهم، وحتى لا يوجد من يأخذه، وتفاعل أن الأعداء سوف ينقلبوا أصدقاء.

عصمة الله نبيه من سراقاة بن مالك:

أيها الإخوة، وحصلت المعجزة الثانية حين عصم الله ﷺ رسوله ﷺ، وحماه من سراقاة بن مالك، الذي طلبهم طمعاً في جائزة قريش، فقد علم سراقاة بخبرهم من رجل من بني مدلج، رآه عن بعد وهم مرتحلون مع الساحل، فاتبعهم سراقاة وهم في مكان من الأرض، وينقل البخاري حديث سراقاة حيث يقول:

((وقد كنت أرجو أن أرده على قريش فأخذ المئة ناقة، كان سراقاة يرجو أن يرد النبي على قريش ويأخذ المئة ناقة، قال: فركبت فرسي على أثره، فبينما فرسي يشتد بي عثر بي، فسقطت عنه، قال: فقلت: ما هذا، قال: ثم أخرجت قداحي . سهامي . فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، قال: فأبيت إلا أن أتبعه، قال: فركبت في أثره فبينما فرسي يشتد بي عثر بي فسقطت عنه .

قال سيدنا موسى وهارون:

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾

(سورة طه)

فرعون بطاش جبار .

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾

(سورة طه)

أفضل إيمان الرجل أن يعلم أن الله معه حيث كان .

هناك قصص في التاريخ عجيبة، شذمة من بني إسرائيل ومعهم موسى عليه السلام متجهون نحو الغرب ونحو البحر:

﴿ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾

(سورة طه الآية: 78)

طاغية جبار، متغطرس، حاقد، لئيم، قلبه كالحجر، لا يرحم، معه عدة وعتاد وسلاح فتاك.

﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ ﴾

(سورة الشعراء الآية: 61)

المؤمنون مع سيدنا موسى في اتجاه البحر .

﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ ﴾

رأوا فرعون وراءهم، وو يتبعهم بأسلحته، وجبروته، وقسوته، وحقده، وبطشه، وتألّه:

﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾

(سورة الشعراء)

هل هناك أمل ؟ بمقياس الأرض، بموازين الأرض دولة بكل ثقلها، بكل أسلحتها بكل مدرعاتها، بكل أجهزتها، بكل طيرانها، بكل ما تملك من قوة تتبع شردمة قليلة أمامها البحر، كم احتمال نجاه ؟ ولا واحد بالمليون.

﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾
﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(سورة الشعراء)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

يا رب، ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟
كن مع الله تر الله معك و اترك الكل وحاذر طمعك
و إذا أعطاه من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

فإنك بأعيننا:

أيها الإخوة، يقول سراقه: فركبت فرسي على أثره فبينما فرسي يشتد بي عثر بي، فسقطت عنه، قال: فقلت: ما هذا، قال: ثم أخرجت قداحي . أي أسهمي . فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره، قال: فأبيت إلا أن أتبعه، قال: فركبت في أثره فبينما فرسي يشتد بي عثر . المرة الثالثة . فسقطت عنه قال: فقلت ما هذا ؟ فلما بدا لي القوم، ورأيتهم يعني رأى النبي وصاحبه، ومن يقود الناقة، فلما رأيت القوم، ورأيتهم عثر بي فرسي للمرة الرابعة، وذهبت يده في الأرض، وسقطت عنه ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار، قال: فعرفت حين رأيت أنه قد مُنِع مني، وأنه ظاهر، قال: فقال رسول لأبي بكر: قل له: وما تبغي منا ؟ فقال له ذلك أبو بكر، قال: قلت . سراقه . تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك، فقد أدرك سراقه أن هذا إنسان غير عادي، لأنه أصر أول مرة والثانية، والثالثة، والرابعة، وكل مرة تغوص قدما فرس سراقه، ويقع عن فرسه، لكن المئة ناقة تتلألاً له فكان مصرراً على أن يقتل محمداً عليه الصلاة والسلام، أما في المرة الرابعة أدرك أن هذا الإنسان ممنوع من أن يناله أذى، قال الله عز وجل قال:

﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

(سورة الطور الآية: 48)

إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟

أجمل كلمة أقولها لكم: قال بعض العلماء: هذا خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، لكن لكل مؤمن من هذا الخطاب نصيب، وأنت أيها المؤمن إذا كنت مستقيماً ومخلصاً، ومتوجهاً إلى الله فإنك بأعين الله، فإنك بعين الله ترعاك، بقدر إيمانك واستقامتك وإخلاصك، فإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾

(سورة طه)

أين أنا؟ لذلك لما رأى سراقه أن النبي ﷺ إنسان غير عادي ممنوع من أن يناله أحد بأذى قال: أريد أن تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك، قال: اكتب له يا أبا بكر، فكتب لي كتاباً في عظم، أو في رقعة، أو في خرقة، ثم ألقاه إلي، فأخذته فجعلته في كنانتي، ثم رجعت فلم أذكر شيئاً، أراد أن يكون هذا سرّاً بينه وبين النبي، ويبدو أنه حينما أيقن أنه ربما قُتل، وأن النبي ﷺ لم يقتله، وإنه إنسان ممنوع من أن يناله بأذى، أراد وفاء مع النبي أن يعتم عليه كل خبر، فلم أذكر شيئاً مما كان، ثم حكى خبر لقاءه برسول الله ﷺ بعد فتح مكة وإسلامه.

مقام ومنزلة النبي عن المسلمين بين الحقيقة والواقع:

أنا أتصور هؤلاء الذين عاملوا النبي كأنسان عادي لما كشفت لهم الحقيقة أنه رسول الله، ماذا الذي حصل لهم؟ سهيل بن عمر حينما فاوض النبي ﷺ في صلح الحديبية قال النبي لعلي بن أبي طالب: اكتب: هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله، قال: امحُ رسول الله، لو آمننا بك رسولاً لما فاوضناك، امحُ، قال: امحها يا علي، ند لند، فإذا علمت أن هذا الإنسان هو سيد الخلق وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، كيف نتأدب بعد مماته؟

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

(سورة الحجرات الآية: 1)

لا تقدم اقتراحات، ولا تنتقد توجيهات، ولا تقل: دعوة النبي لغير هذا العصر، ولا تقل: الحياة كانت محدودة، كل هذا من باب تقديم اقتراحات فيها تطاول على مقام النبي عليه الصلاة والسلام.

هناك معنى آخر أحب أن أضيفه إليكم: أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

(سورة الأنفال الآية:33)

المعنى الآن الظاهر: ما دام النبي بين ظهراي صاحبتة الكرام فهم في مأمن من عذاب الله، لكن ماذا نفعل في هذه الآية بعد وفاة رسول الله؟ قال علماء التفسير: مادامت سنة النبي ﷺ قائمة في أمته فأتمته في مأمن من عذاب الله، أما إذا نالهم العذاب إذا هم ليسوا على منهجه، ولم يستغفروا، لأن الله عز وجل يقول:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(سورة الأنفال)

وقد نذكر سرقة في رواية صحيحة أنه اقترب من رسول الله وأبي بكر حتى سمع قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، كما ذكر أنه عرض عليهم الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً، وأن وصيته كانت أنه أخف عنا

العناية الإلهية المشددة دليل خير وعافية:

أيها الإخوة، موضوع سرقة أمضينا فيه وقتاً طويلاً، لكن أهم شيء في هذا الموضوع يجب أن تكون واثقاً بأن الله لا يتخلى عن المؤمنين، لكنه يعالجهم، لكنه يؤدبهم لكنه يشدد عليهم، وقد ورد في الأثر:

((أوحى ربك إلى الدنيا أن تشددي، وتضيقي على عبدي المؤمن لأني أحب أن أرحمه))

[ورد في الأثر]

وقد ورد في بعض الآثار القدسية:

((لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته))

[ورد في الأثر]

إخوتنا الكرام، استبشروا إذا كنتم في العناية المشددة، استبشروا إذا تابعتك الله عز وجل، استبشروا إذا جاء عقاب تقصير، أو مخالفة العقاب الإلهي، معنى ذلك أنك ضمن العناية المشددة.

إذا كان معك التهاب المعدة فقط، وليس معك ورم خبيث، ما دام هناك تشديد، وتضييق ومتابعة، وعقاب، وتأديب، معنى ذلك أنت في العناية المشددة، والمرض الذي سبب فوق هذه المصيبة قابل للشفاء، أما إذا أعطى الله الإنسان كل ما يشتهي وهو يزداد كفوراً وعتاداً ومعصية فهذا خارج العناية المشددة، هذا كلام دقيق، معنى ذلك أنه يرجى منك الخير.

وصدقوا أيها الإخوة أن 90% ممن ينجو من أخطار الدنيا كانت نجاته بسبب معالجة إلهية حكيمة. والله مرة أحد الإخوة له أخ بعيد عن الله بعد الأرض عن السماء، أخ شارد، غارق في كل أنواع المعاصي والآثام، وله شبكة علاقات نفيسة مع الأقوياء، ومع المنحرفين، ثم أصيب بأزمة قلبية حادة أدخل على أثرها إلى المستشفى، وإلى غرفة العناية المشددة، بعد هذا التقيت معه، وقال لي وهو على سرير العناية المشددة انه قال: يا رب أعطني فرصة أتوب إليك، أنا لا أرضى أن آتي إليك وأنا بهذه الحال، فالله عز وجل أعطاه فرصة، والأزمة أزيحت عنه، واستعاد صحته، ولزم دروس العلم، وتابع هذه الدروس، ثم مرة قال لي: وأنا أناجي ربي، قلت له: يا رب، كل هذه السعادة بسبب الإقبال عليك على إثر هذه المصيبة التي أصابتنني ! لم لم ترسل لي هذه المصيبة من عشر سنوات ؟ تمنى أن تأتي في وقت مبكر.

أنت حينما تتالك عناية الله بشيء يزعجك في الأول.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾
(سورة البقرة)

لعلي ذكرت هذه القصة سابقاً، لكن هنا مناسبة جداً:

فتاة تحمل شهادة ثانوية، وتحب أن تكون معلمة، إنها سافرة، ولا تصلي، ولا تعتقد أن الدين سبيل سعادتها، فطلب منها فحص صدر، ذهبت إلى مستشفى حكومي، وفُحص صدرها، فإذا بتقرير يؤكد أنها مصابة بمرض السل، فلما علم أهلها ابتعدوا عنها، وخافوا من العدوى، وجعلوها تقبع في غرفة خاصة، ولها أدواتها الخاصة، وثيابها الخاصة، وحاجاتها الخاصة، وبكت، وبكت، وانهارت، ويأسيت إلى أن قررت أن تصلي، ثم قررت أن تتحجب، ثم ذاقت طعم القرب من الله، لكن أخاها من باب الفضول ذهب إلى المستشفى ليستطلع الخبر، فإذا بالتقرير أعطي لها خطأ، هي سليمة، لكن أعطي لها تقرير إنسان آخر، إذاً الله عز وجل ساق لها شبح المصيبة،

حتى حملها على التوبة، لذلك قال تعالى:

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾

(سورة لقمان الآية: 20)

والحمد لله رب العالمين

الدرس (09) : قصة أم معبد و قصة حاطب بن بلتعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين ، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

قصة أم معبد :

أيها الإخوة الكرام ، مع درس جديد من دروس فقه السيرة النبوية ، ننقل إلى حديث أم معبد .

مَنْ هِيَ أُمُّ مَعْبَدٍ ؟

قصة أم معبد وردت في كتب السيرة ، النبي عليه الصلاة والسلام في طريق الهجرة إلى المدينة ، أو في القسم الأخير من الرحلة مر بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة جذة ، الحياة في البادية قاسية جداً ، والمرأة في البادية تكون أيضاً قاسية ، تحتبي والاحتباء كما قالوا : حيطان العرب ، أي أن الإنسان في الخيمة ليس هناك جدران يستند إليها يضع يديه أمام ركبتيه . هكذا . فيتوازن ، لذلك قالوا : الاحتباء حيطان العرب ، ثم تطعم ، وتسقي من يمر بها ، وهذا من عادات كرم ، لذلك العرب كان في الجاهلية كرماء جداً ، وكانوا شجعان ، وكانوا شرفاء ، هم في الجاهلية .

أغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يوارى جارتي مأواها

فائدة دعوية : الاهتمام بمن فيهم خيرٌ :

هناك قصص رائعة جداً ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا جاءه إنسان كان مشركاً وأسلم يقول له :

((أسلمت على ما أسلفت من خير)) .

[متفق عليه عن حكيم بن حزام] .

وكان يقول عليه الصلاة والسلام :

((خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا)) .

[رواه البخاري عن أبي هريرة] .

ماذا يفيدنا هذا الكلام ؟ أنت أيها الأخ المسلم إن رأيت صديقاً لك أو زميلاً أو قريباً لا يصلي ، وليس ملتزماً إطلاقاً ، لكنه لا يكذب ، لكنه يحب خدمة الناس ، لكنه لا يخون ، لا يأخذ ما ليس له ، تعجبك صفاته ولا تعجبك عبادته ، لا يصلي ، أنا أنصحك : هذا الإنسان اهتم به ، لأن أخلاقه الفاضلة هذه سوف تقوده إلى الإيمان ، لذلك قال النبي الكريم :

((أسلمت على ما أسلفت من خير)) .

وقال :

((خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا)) .

والذين أسلموا مع رسول الله ، وكانوا أبطالاً كانوا في الجاهلية أخلاقيين ، إذاً إطمع واعتني بكل من حولك ممن كان أخلاقياً ، وقد ورد في القرآن الكريم آية دقيقة ، بعضهم يفهمها بشكل دقيق ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾

(سورة الأعراف) .

الصالح الذي لا يكذب ، والذي يرحم الناس ، والذي لا يخون ، والذي يحب أن يقدم خدمات للناس هذا إنسان صالح ، لو لم يعجبك دينه فهذا سينتهي به صلاحه إلى الإيمان ، لذلك اعتن به .

كرم أم معبد ومعجزة النبي في حلب الشاة العجفاء :

فأم معبد وزوجها أبو معبد كانوا كرماء ، وكانوا يطعمون كل من يمر بهم يسألها النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر ، هل عندك شيء نشتريه منك ؟ مسافة طويلة ، الآن تركب سيارة مكيفة ، والسرعة 180 كيلومترا ، تحتاج إلى أربع ساعات ونصف ، أما المسافة فيقطعها الراكب على ناقة في 12 يوماً ، فقالت : والله لو عندنا شيء ما بخلنا به عليكم ، والشاء عازب ، أي ليس في ضرعها حليب ، وكانت سنة شهباء قاحلة ، فنظر النبي ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة ، أي في طرف الخيمة ، فقال : ما هذه الشاة ؟ قالت : خلفها الجهد ، فمن شدة هزالها وضعفها لم تستطع أن تذهب مع أخواتها إلى المرعى ، خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ قالت : هي أجهد من ذلك ، قال : أتأذنين لي أن أحلبها ؟ ما هذا الأدب ؟! أيام يدخل إنسان يجلس على الطاولة مكان صاحب البيت يستخدم الهاتف مكالمة خارجية ، ولا يستأذنه ، قال لها : أتأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبي أنت وأمي ، إن رأيت بها حليب فاحلبها ، فمسح النبي صلى الله عليه وسلم بيده ضرعها ، وسمى الله ، ودعا الله فتفاجت عليه ودرت ، فدعا بإناء لها فحلب فيه حتى علته رغو ، فسقاها فشربت حتى روت ، وسقا أصحابه حتى رووا ، ثم شرب هو .

تواضع النبي ﷺ :

متى شرب؟ آخر الناس شرباً ، كان عليه الصلاة والسلام في خدمة أصحابه ، وكان واحداً منهم ، وكان يقدمهم عليه ، ومرة كان مع أصحابه في سفر وأرادوا أن يعالجوا شاة ، فقال أحدهم : عليّ نبحها ، وقال الثاني : عليّ سلخها فقال الثالث : عليّ طبخها ، فقال عليه الصلاة والسلام : وعليّ جمع الحطب ، فقالوا له : تكفيك ذلك يا رسول الله ، قال : أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أصحابه . كان إذا دخل عليه أعرابي لا يعرف من هو محمد ، ماذا تستنبطون ؟ يجلس مع أصحابه على الأرض من دون أي تميز ، فهذا السؤال له روايتان ، الرواية الأولى :

قال الأعرابي : أيكم محمد ؟ فقال أحد الصحابة القريبين منه : ذاك الوضيء الذي به وضاعة في وجهه .
الرواية الثانية : قال النبي الكريم : قد أصبت ، أنا .

إذاً كان متواضعاً ، كان مع أصحابه قال : أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه .

مرة وهو قائد الجيش ، وزعيم الأمة ، ونبي الأمة ، وآخر الرسل ، وبعد الإسراء والمعراج سيد ولد آدم ، سيد الخلق ، وحبيب الحق ، في بدر الرواحل قليلة والصحابة أكثر من ثلاثمئة ، فقال :

((كل ثلاثة على راحلة ، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة . سوى نفسه كجندي في هذه المعركة . فركب

الناقة ، وانتهت نوبة النبي في ركب الناقة ، أراد أن ينزل فتوسلا صاحبه أن يبقى راكباً ، فقال كلمة والله لو رددتها ألف مرة لا أرتوي منها ، قال : ما أنتما بأقوى مني على السير)) .

(أحمد)

كان يتمتع بلياقة عالية جداً .

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ حَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ)) .

[رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه] .

((ما أنتما بأقوى مني على السير ، ولا بأغنى منكما على الأجر)) .

أنا أريد أجر المشي .

أحياناً يطلق الله لسانَ الإنسان فيترفع عن أي عمل صالح يراه تافهاً ، هو للدعوة فقط ، لإلقاء الكلمات ، ليجلس في الصف الأول دائماً ، ليحترم ، ليقوم الناس له ، أما أن يطعم قطة مثلاً ، أو أن يسعف كلباً مقطوعاً ، أو أن يقوم بخدمة مسجد فهذه هو فوق ذلك ، سيد الأمة ، وحبيب الحق ، قال : ولا أنا بأغنى منكما عن أجر المشي ، أريد أن أمشي كي أكسب الأجر مثلكم ، هذا التواضع .

إنَّ أيَّ داعية أيها الإخوة لا يقلد النبي عليه الصلاة والسلام في سيرته مع أصحابه لا يفلح ، فإذا كان ثمة إنسان على الأرض يستحق أن نخدمه بلا مقابل كان هو رسول الله ، ومع ذلك خدمه سيدنا ربيعة ، وفي اليوم السابع قال : يا ربيعة : سلني حاجتك ، قال : أمهلني يا رسول الله ، فأملهه ، فلما سأله ثانية قال : ادعُ الله لي أن أكون معك في الجنة ، قال له : من علمك هذا ؟ النبي يقصد حاجة مادية ، لأنه خدمه ، شعر النبي عليه الصلاة والسلام أن خدمة ربيعة له دين عليه ، هناك من يقول : لي عليكم فضل ، تعالوا قدموا لي خدماتكم ، هذا بعيد عن أصول الدعوة بُعد الأرض عن السماء ، يجب أن تكون في خدمة إخوانك ، يجب أن تكون آخرهم شرباً ، سقى أم معبد ، وسقى أهل البيت ، وسقى أصحابه ، ثم شرب آخر واحد منهم .

إخواننا الكرام ، معركة الخندق كانت من أقسى المعارك ، أصحابه جاعوا جوعاً شديداً ، وبردوا برداً شديداً ، والخطر كبير جداً ، والإسلام قضية ساعات ، وينتهي حتى أن بعض الذي كان مع رسول الله قال : أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟ كأنه انسلخ من اتباع النبي ﷺ .

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

(سورة الأحزاب) .

الجوع شديد جداً ، والبرد شديد ، والخوف شديد ، والخطر شديد ، وجاءت قريش ومن لف لفها ليستأصلوا الإسلام كلياً ، الإسلام بقي له ساعات ، صحابي جليل يحب النبي حباً جما انسل إلى بيته عنده شاة صغيرة ، وأمر أهله أن تذبحها ، وأن تطبخها ليأكل النبي ﷺ .

أنا تساءلت : هل يعقل أن يأكل النبي وحده أو مع صاحبيه ؟ مستحيل ، وألف ألف ألف مستحيل ، فهو جاء بها سراً ، وقال : يا رسول الله ، كل هذه أنت وصاحبك ، فنادى لكل أصحابه ، وكان في معركة ، هذه من معجزاته الحسية ، ما بقي واحد إلا وأكل ، سبحان الله !!! المغزى أنه لا يمكن لنبي أن يتميز على من معه ، أبداً ، هو واحد منهم ، لذلك قال بعضهم :

يا من جنئت الحياة وأعطيت ولم تأخذ ، يا من ملكت القلوب ، يا من قدست الوجود كله ، ورعيت قضية الإنسان ، يا من زكيت سيادة العقل ، ونهنت غريزة القطيع يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع فعشت واحداً فوق الجميع ، يا من كانت الرحمة مهجتك ، والعدل شريعتك ، والحب فطرتك ، والسمو حرفتك ، ومشكلات الناس عبادتك .

وجوب محبة النبي عليه الصلاة والسلام :

إن الذين افتدوه بأرواحهم لهم الراحون ، هؤلاء عرفوا قدره ، فإذا عرفت قدر رسول الله فلا بد من أن تهيم به حباً .

والله إن هذا الذي رسم النبي عليه الصلاة والسلام بصور لا تليق بمؤمن حينما يكشف له الغطاء يوم القيامة أنا أتصور أنه يقول لله عز وجل : يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون علي مما ألقى ، لا يحتمل ، أعلمت من رسمت ؟ رسمت سيد الخلق وحبیب الحق ، رسمت الذي أقسم الله بعمره الثمين ، رسمت الذي عفا عن خصومه .

((ما تظنون أني فاعل بكم قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء)) .

[رواه ابن أبي شيبة عن صفية بنت شيبة]

إخواننا الكرام ، محبة رسول الله جزء من الدين ، قال : والله يا رسول الله . سيدنا عمر . إنني أحبك أكثر من أهلي ، وأولادي ، ومالي ، إلا نفسي التي بين جنبي ، فقال النبي الكريم : لما يكمل إيمانك يا عمر ، إلى أن جاءه ثانية وقال : والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من نفسي ، وأهلي ، وأولادي ، ومالي ، قال : الآن يا عمر .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا

تَسْلِيماً ﴾

(سورة النساء) .

أحد أركان الإيمان أن تحب النبي العدنان ، محبتك له دليل إيمانك ، لأن الرحيم يحب الرحيم ، والكريم يحب الكريم .

رحمة النبي عليه الصلاة والسلام بأصحابه :

مرة أحد الصحابة ، اقبلوا مني هذه القصة ، مع أنها غريبة جداً ، كتب إلى قريش اسمه حاطب بن بلتعة : إن محمداً سيعزركم ، سرب معلومات ، قبل الغزو ، فاخذوا حذرهم ، فجاء النبي الوحي ، وأخبره بما فعل حاطب ، فطلب النبي الكتاب الذي أرسله حاطب مع امرأة خرجت من المدينة إلى مكة ، تبعها صحابييان ، وصلا إليها ، أين الكتاب ؟ فأنكرت ، فقال أحدهما : لناخذن الكتاب أو لننزعن الحجاب ، خافت فأعطتهم الكتاب ، فتح الكتاب ، حاطب بن بلتعة يقول : إن محمداً سيعزركم فخذوا حذرهم ، جاؤوا بالكتاب إلى النبي الكريم ، واستدعى حاطباً ، هذه بالتعبير الحديث خيانة عظمى ، بكل الدول والشعوب والتاريخ والحاضر والماضي والمستقبل عقابها الإعدام ، فإذا شاء الله في القريب العاجل أن هيأنا خطة لفتح القدس فرضاً ، وسرّب واحد الخبر أن ثمة خطة ، ماذا يفعل به ؟ إعدام ، قال له : ما هذا يا حاطب ؟ فبكى ، قال له :

والله ما كفرت ، ولا ارتدت ، ولكنني لصيق بقريش ، وأنا واثق أنا الله سينصرك ، أردت بهذا الكتاب أن يكون لي عند قريش أحمي بها أهلي وأولادي ومالي ، فقال عليه الصلاة والسلام : إن صدقته فصدقوه ، ولا تقولوا فيه إلا خيراً .

هذه أخلاق أنبياء .

جاءه عكرمة ، من أبوه ؟ فرعون قريش ، عكرمة بن أبي جهل أبو جهل أكفر كفار قريش ، وألد أعداء النبي ، ولم يدع أسلوباً في التكيل لرسول الله إلا فعله ومات عكرمة ، قتل ، جاء ابنه مسلماً ، فقال عليه الصلاة والسلام : جاءكم عكرمة مسلماً فإياكم أن تسبوا أبا ، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت .

إذا كان أخ من إخوانك أبوه كان بعيداً عن الدين بُعداً كثيراً فلا تخرجه ، لا تحمر وجهه ، ولا تقل : أبوك ما كان مؤمناً ؟ ما كان يصلي ؟ كن لطيفاً ، عتّم على الموضوع .

فلذلك من رأى النبي عليه الصلاة والسلام بديهة هابه ، ومن عامله أحبه .

صحبة الصالحين أحد الوسائل القرب من الله :

بعض الصحابة خدم النبي عليه الصلاة والسلام حينما تنتهي مدة خدمته يقول له النبي : انصرف بعد العشاء ، من شدة تعلقه برسول الله يبقى نائماً على طرف الباب ، هذه الكمال ، لو التقيتم بإنسان موصول بالله تجدون فيه الأنا ، والروحانية ، والمحبة ، والكلام الجيد ، والتعليقات اللطيفة ، تشعر بأنا لله عز وجل ، لذلك قالوا : صحبة الصالحين أحد الوسائل القرب من الله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾

(سورة المائدة الآية : 35) .

صحبة الصالحين وسيلة من وسائل القرب من الله عز وجل ، يؤكد هذا أن سيدنا حنظلة كان في أحد طرق المدينة يبكي ، رآه النبي عليه الصلاة والسلام ، قال له : ما لك يا حنظلة تبكي ؟ قال : نافق حنظلة ، قال له : ولم ؟ قال نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين ، فإذا عافسنا الأهل ننسى .

حال المؤمن بالجامع حال متألق ، يحس بإقبال ، وبأنا ، وبمحبة لله ، يعقد نيات طيبة جداً ، فسيدنا الصديق من كماله قال له : أنا كذلك يا أخي .

أحياناً يشكو لك إنسان ابنه ، فتقول له : لا ، أنا ابني الحمد لله راق جداً ، وفهيم ، خفف عنه قليلاً ، قل له : والله هذه مشكلة عامة .

قال له : أنا كذلك يا أخي ، انطلق بنا إلى رسول الله ، فلما عرضا على النبي هذه المشكلة قال عليه الصلاة والسلام :

أما نحن معاصر الأنبياء فتنام أعيننا ، ولا تنام قلوبنا ، أما أنتم يا أخي فساعة وساعة ، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ولزارتكم في بيوتكم .

(الترمذي عن حنظلة)

فأنت حينما تأتي إلى المسجد لتستمع إلى درس علم ، إنك تُسبحن كما يُسبحن الهاتف الخليوي .
و الحمد لله رب العالمين .

الدرس (10) : قصة أم معبد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس فقه السيرة النبوية، ولا بد من وقفة سريعة حول حكم الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف، لأن هذه قضية أختلف فيها.

بسط القول في حكم الاحتفال بالمولد النبوي:

أولاً: يجب أن نعلم علم اليقين أنه ما لم يتم الفرض إلا به فهو فرض، وما لم لا يتم الواجب به فهو واجب، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، هذه قاعدة أصولية متفق عليها رأيت إلى الوضوء هو فرض، لأن الصلاة وهي فرض لا تؤدي إلا به، إذاً هو فرض.

الآن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، هذه قاعدة أصولية ثانية، ما لم تكن قرينة تصرف عن الوجوب إلى شيء آخر، كأن يقول الله عز وجل:

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾

(سورة الكهف الآية: 29)

هذه لام الأمر، هذا أمر تهديد، أو أمر إباحة.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾

(سورة البقرة الآية: 187)

إباحة، أو أمر ندب:

﴿ وَأُنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾

(سورة النور الآية: 32)

مادام هناك قرينة تصرف عن الوجوب فالأمر يأخذ معنى الإباحة، ويأخذ معنى الندب، ويأخذ معنى التهديد، ما لم تكن هذه القرائن فكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، حينما يقول الله عز وجل:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

(سورة الحشر الآية: 7)

خذوه أمر، هذا أمر يقتضي الوجوب، التطبيق كيف نأتمر بما أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام، وكيف ننتهي عما عنه نهانا، إن لم نعرف ما الذي أمرنا، وعن أي شيء نهانا، إذاً معرفة سنة النبي القولية فرض عين، وإذا قال الله عز وجل:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

(سورة الأحزاب)

كيف يكون النبي ﷺ أسوة لنا حسنة إن لم نعرف سيرته، كيف عامل زوجته كيف عامل أولاده، كيف عامل جيرانه، كيف عامل أصحابه، كيف كان في سلمه، كيف كان في حربه، كيف كان في الفقر، كيف كان في الغنى، كيف كان في السراء، كيف كان في الضراء، إذاً ومعرفة سيرة النبي ﷺ فرض عين على كل مسلم.

حينما تحضر درس فقه السيرة لا تظن أن هذا الحضور من نوافل العلم، بل من واجبات العلم، بل من الفرائض التي افترضت على المؤمنين، لأنهم مأمورون أن يأخذوا عن النبي ﷺ ما أمرهم، وقد نهوا أن ينتهوا عن كل شيء نهاهم عنه النبي ﷺ.

إذا معرفة سنة النبي القولية فرض عين على كل مسلم، لأن تنفيذ أمر الله عز وجل:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

لا يتم إلا بمعرفة الأمر، ومعرفة سيرة النبي ﷺ فرض عين، لأن أن يكون النبي ﷺ أسوة لك، وهذا لا يتم إلا إذا عرفت سيرته.

الآن إذا قال الله عز وجل:

﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

(سورة هود الآية: 120)

إذا كان قلب سيد الخلق وحبیب الحق يزداد ثبوتاً عندما يسمع قصة نبي دونه فلأن يقوى إيماننا إذا سمعنا قصة سيد الأنبياء والمرسلين، قال تعالى:

﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾

(سورة المؤمنون الآية: 69)

يعني اعرفوا رسولكم، فإذا جلست في مكان، في بيت، في مسجد، في دعوة من أجل أن تتعلم شمائل النبي، وأخلاق النبي، ومنهج النبي، وكمال النبي فهذا من صلب الدين، الآية السادسة:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾

(سورة سبأ الآية: 46)

﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾

وتفكروا في منهج النبي ﷺ، في دعوة النبي ﷺ، في سنة النبي ﷺ .

﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾

إخواننا الكرام، الاحتفال بعيد المولد أي أن نجتمع في أي يوم من أيام العام من دون استثناء، وأن نحدث الناس عن سيد الأنام هذا من الدعوة إلى الله، هذا من صلب النشاط الدعوي في الإسلام، لكن إياك أن تقول: إن الاحتفال بعيد المولد عبادة، لأن الأصل في الأشياء الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بدليل قطعي الثبوت والدلالة، أما العبادات فبالعكس، الأصل فيها الحظر، ولا تشرع عبادة إلا بدليل قطعي الثبوت والدلالة، لا تسم الاحتفال بعيد المولد عبادة، سمّه نشاطاً دعوياً، سمّه تعريف الناس برسول الله، سمّه شرح الشطر الثاني من كلمة التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

بالمناسبة أيها الإخوة، لا يمكن أن تعيش المُثل إلا بمثل أعلى، وتكاد مشكلة المسلمين اليوم أنهم فقدوا المثل الأعلى، لذلك ضاعوا، واختلفوا، وأصبح بأسهم بينهم المثالية تحتاج إلى مثل، القيم الأخلاقية تحتاج إلى كائن متحرك ترى صدقه، ترى أمانته ترى عفافه، ترى كماله، من هنا كانت صورة النبي ﷺ كتاباً وسنة بشكل عملي، لو لم يكن في الدين إلا سيرة النبي لكفت، لأنها في الحقيقة كتاب وسنة، ولكن ليست قولاً بل عملاً.

ولبعض العلماء رأي دقيق جداً، وأنا أحترمه، أن دلالة أفعال النبي على فهمه لكتاب الله أدق من دلالة كلامه على فهمه لكتاب الله، لأن الكلام يؤول، بينما الفعل لا يؤول، الفعل حدي، أما الكلام فاحتمالي. يقول أحدهم: أنا أصلي بغير وضوء، ما هذا الكلام؟ يمكن انه يصلي على النبي بغير وضوء، يقول: أنا أفّر من رحمة الله، وهو يعني من المطر، يقول: أنا أحب الفتنة، وهو يحب أولاده.

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

(سورة التغابن الآية: 15)

يقول: أنا أكره اليقين، واليقين هو الموت.

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾

(سورة الحجر)

فالكلام يؤول، أما الفعل فلا يؤول، هذا الموضوع القصير بدأت به الدرس لأننا في ذكرى مولد النبي عليه الصلاة والسلام، ونتابع السيرة.

مرور النبي عليه الصلاة والسلام بخيمة أم معبد ومعجزته مع الشاة العجفاء:

أيها الإخوة الكرام، في طريق النبي عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة مر بخيمة أم معبد، أم معبد امرأة لها خيمة مرّ بها النبي عليه الصلاة والسلام مع صاحبه أبي بكر، قال: وكانت امرأة برزة، معنى برزة أي برزت محاسنها، هذا قول، معنى برزة أي امرأة موثوق برأيها وعفتها، والقول الثاني أرجح، أو إن كشف وجهها، أو كهلة لا تتحجب كما تتحجب الشابات، هذه المعاني وردت في كلمة برزة، يرجح عندي أنها امرأة موثوق برأيها وعفتها، وأنها كهلة لا تتحجب، أو لا تخفي وجهها، وكأن الحجاب من الفطرة، هذه امرأة لم تسلم بعد، الحجاب من الفطرة، ورد في القاموس أن المرأة البرزة هي الكهلة التي لا تتحجب احتجاب الشابات.

أيها الإخوة، وكانت امرأة برزةً جلدة، ليس بين جلدها وعظمتها لحم كثير ، يعني أنها ممتلئة، ولكنها ليست بدينة، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي، قال بعض العلماء: الاحتباء حيطان العرب، الخيمة ليس فيها حائط تستند إليه، بل إن القماش لا يحتمل أن تستند إليه، إذاً كان العرب وهم في الصحراء يشبكون أصابعهم أمام ركبهم، وهذا هو الاحتباء.

إذاً هذه المرأة كانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة، ثم تطعم، وتسقي من مرّ بها يسألاها، النبي عليه الصلاة والسلام مع صاحبه سألاها: هل عندك شيء نشتره ؟ فقالت: والله لو عندنا شيء ما أعوزتكم إلى القرى، لو عندنا شيء نبيعكم إياه ما حملتكم على أن تسألوني، لأطعمتكم من تلقائي نفسي، لأن صفة الكرم والشجاعة من أبرز صفات الصحراء.

ثمّة إنسان في الصحراء كان من لصوص الخيل، وأرض تصنع الألم من شدة الحر، مرّ به فارس على فرسه، فرقّ له، ودعاه إلى ركوب الخيل، فما إن ركب هذا اللص الخيل حتى دفع صاحبها نحو الأرض، وعدا بها لا يلوي على شيء، قال له صاحب الفرس: يا هذا، وهبث لك الفرس، ولن أسأل عنها بعد اليوم، ولكن إياك أن تشيع هذا الخبر في الصحراء، فتذهب منها المروءة، وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما في الصحراء.

والآن الذين يمنعون الماعون، تقترض فلا تؤدي، يقترض فلا يؤدي، الآن معظم الناس يمتنعون عن الإقراض الحسن، هذا الذي اقترض، ولم يؤدّ منع الماعون، هذا الذي استعار حاجة فأتلفها منع الماعون، أنت حينما تسيء لمن أحسن إليك تمنع الماعون.

أيها الإخوة، ثم قالت: والشاء عازب، معنى عازب لا يدرّ ضرعها، وكانت سنة شهباء، أي لا نبات فيها ولا مطر.

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، يعني في جانب الخيمة، فقال: ما هذه الشاة؟ قالت: خلفها الجهد عن الغنم، أي التعب والمشقة والنصب، فقال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك، هي أضعف من أن تعطي اللبن، فقال عليه الصلاة والسلام بأدب جم: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: نعم، بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حليباً فأحلبها، فمسح رسول الله ﷺ بيده الشريفة ضرعها، مسح ضرعها وسما الله ودعا، فتفاجت عليه، معنى تفاجت أي فرقت ما بين رجليها كي يسهل عليه حلب ضرعها، فتفاجت عليه ودرت، فدعا بإناء لها يربض الرهط، معنى يربض أي يشبع يروي، الرهط أهلها زوجها وأولادها، فدعا بإناء لها يربض الرهط فحلب فيه حتى علت الرغوة فسقاها، سقى أم معبد، لم يشرب هو، سقاها أولاً فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رروا، ثم شرب هو، ساقى القوم آخرهم شرباً، وحلب فيها ثانياً فملاً الإناء، ثم غادره عندها، وارتحلوا، فما لبس أن جاء زوجها يسوق أعزراً عجافاً، أي هزيلة من شدة الجوع، وتساوتن هزالاً، أي كل عنزة تشبه أختها في هزالها، لأن السنة شهباء، قاحلة فلما رأى اللبن، قال أم معبد: من أين هذا والشاء عازب لا تدرّ؟! ولا حلوبة في البيت، قالت: والله مر بنا رجل مبارك، ومن حديثه كيت وكيت، قال: والله إني أراه صاحب قريش الذي تطلبه، وضعوا مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، صفيه لي يا أم معبد.

وصف أم معبد للنبي ﷺ الخلقية والخلقية :

هذا هو درس اليوم صفيه لي يا أم معبد، ومرة واحدة في درس السيرة نصف شكل النبي عليه الصلاة والسلام، ومن أدق وصف ورد عن أم معبد، لكن أصحابه الكرام من شدة هيئته، ومن شدة مكانته إذا جلسوا معه كأنهم على رؤوسهم الطير، لن يصفوا، لكن أم معبد وصفته قالت:

>> هذا الرجل ظاهر الوضوء، الوضوء؛ النظافة والحسن، ظاهر الوضوء، أبلج الوجه، الكلمة كالكائن الحي، يولد ويشب ويهرم ويموت <<.

هناك كلمات كثيرة جداً في التاريخ العربي الآن ليست مستخدمة، أضرب لكم مثلاً، قال بعض الشعراء في الجاهلية:

مدخوصة بنحيص الدحص باذلها له صريفٌ صريفُ القعو في المسد

هل فهمتم شيئاً ؟ هذه لغة عربية، كلها كلمات الآن غير مستعملة، فهذا الوصف رائع جداً، إلا أن أكثر كلماته تحتاج إلى شرح.

>> رأيت رجلاً ظاهر الوضوء، يعني نظيفاً، حسن الوجه، أبلج الوجه، وجه مشرق، ليس عبوساً قمطيرياً، حسن الخلق، كامل، لم تعبه سجلة، ما هي السجلة ؟ ضخامة البطن، لم تعبه سجلة، ما له بطن كبير، التجار أحياناً يستخدمون البطن الكبير بمعنى آخر، ولم تزر به صعلة، الصعلة صغر الرأس، ليس بطنه كبيراً، ولا رأسه صغيراً وسيم، وسيم يعني جميل.

وأجمل منك لم ترَ قط عينٌ وأكمل منك لم تلد النساءُ

خلقت مبرأ من كل عيبٍ كأنك خلقت كما تشاءُ

وسيم قسيم، معنى قسيم له من كل أنواع الحسن قسم، والحسن قد يكون طولاً، وقد يكون بياضاً... إلخ، له من كل أنواع الحسن نصيب، قسم، في عينيه دعج، عيناه واسعتان، وبياضها شديد النضوع، وسواد بؤبؤها شديد السواء، وهذا هو الحور في اللغة شدة بياض العين مع شدة سوادها، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، والأشفار رموش عينه طويلة، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، بحة، الآن كبار قراء القرآن الكريم له بحة محببة جداً، بحة الصوت فيها أنس، النفس تطرب لهذه البحة، في صوته صحل، وفي عنقه سطع، عنقه طويلة . في رأس ملزوق بالكثف وفي عنق جميل . وفي لحيته كثائة، شعره غزير، أكحل في سواد في جفنه، طبيعي من دون كحل أكحل، أزج، ومن أدق ما قال العلماء وعلماء اللغة في أزج: يعني حواجه طويلة ورقيقة ومنقطعة بين العينين، بياض ناصع بين الحاجبين، حاجب طويل ورقيق ومعرج، أقرن يميل مع العين، طويل ورقيق ومعرج، وبين الحاجبين بياض ناصع، أزج أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، من رآه بديهة هابه، ومن عامله أحبه.

دخل عليه رجل أصابته رعدة، قال: هَوْن عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة، حتى أن أصحابه الكرام قالوا: من رآه بديهة هابه، ومن عامله أحبه.

إذا صمت علاه الوقار ، وإذا تكلم علاه البهاء ، أجمل الناس ، وأبهاهم من بعيد ، هناك إنسان تراه عن بُعد جميلاً ، إذا اقترب منك والعياذ بالله ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم وأحلامهم من قريب ، جميل على البعد وعلى القرب ، حلو المنطق ، كلامه جذاب بالتعبير الحديث ، متحدث لبق ، يأسر القلوب بكلامه ، لا نذر ، معنى ندر أي قليل الكلام ، قد تسأل الطبيب : ما الوضع ؟ أخذ مبلغاً كبيراً ، لا يتكلم ولا كلمة ، خذ الدواء فقط ، المريض يحب أن يفهم ما وضعه ، هل الحالة صعبة ؟ سهلة ؟ علاجها سهل ؟ عيب بالإنسان في قلة كلامه ، هناك إنسان قلة كلامه جفاء لمن حوله ، وإنسان لا يحتمل من كثرة كلامه ، كان عليه الصلاة والسلام حلو المنطق ، منطقته لا ندر ولا هدر ، كأن منطقته خرزات نظم يتحدرن كأنه عقد ، الحبة الأكبر ، الأصغر ، الأصغر ، نظم الكلام فن ، كأن منطقته خرزات نظم يتحدرن ، ربعة ، لا هو طويل تشنأه العين من طوله ، ولا هو قصير تقتحمه العين من قصره ، لا هو قصير يقتحم ، ولا طويل يصعب أن تنظر إليه .

قال رجل قصير لرجل طويل : الطقس عندك كيف فوق ؟ لأن ثمة مسافة طويلة .

ربعة ، أي ليس بالطويل ولا بالقصير ، معتدل ، لا تقتحمه عين من قصر ، ولا تشنأه عين من طول ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرًا ، معه اثنان حادي الإبل وسيدنا الصديق ، الغصن بين غصنين ، النبي الكريم كغصن أنضر الأغصان الثلاثة ، أجملهم وأحسنهم قدرًا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره محفود ، أي التف الناس حوله ، محشود مخدم ، لا عابس ولا مفند ، هناك إنسان ينتقد دائماً مُتعب ، ظله ثقيل ، كل شيء ينتقده ، لا عابس ولا مفند ، لا ينتقد ، قال أبو معبد : والله هذا صاحب قريش ، يعني هذه الصفات الكاملة .

بالمناسبة أيها الإخوة ، هذا الإنسان الكامل ، الجميل ، الرحيم ، الكامل المتواضع ، الأخلاقي ، الذي يوحى إليه ، الذي معه القرآن ، الذي آتاه الله المعجزات الفصيحة ، الحكيم ، كل هذه الكمالات قال له الله أنت أنت بالذات ، على كل هذه الخصائص :

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

(سورة آل عمران الآية: 158)

فالواحد لو لم يكن نبياً، ولا رسولاً، ولا يوحى إليه، ولا معه قرآن، ولا معجزات، وليس فصيحاً، وليس جميلاً، ومع ذلك فهو غليظ قال له:

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾

أنت أنت بالذات:

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

(سورة آل عمران)

قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي تطلبه، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، وأصبح النبي عليه الصلاة والسلام في طريقه إلى المدينة.

هذا أدق وصف مر بالسيرة النبوية للنبي عليه الصلاة والسلام في شكله أولاً، وفي أخلاقه، وفي تواضعه وأدبه، وحسن صحبته مع إخوانه.

هذا الدرس الوحيد في فقه السيرة متعلق بشكل النبي عليه الصلاة والسلام، وقد جمعت لكم بعض الأحاديث الشريفة حول خلقه ﷺ، وقد علمنا النبي الكريم أن أحدنا إذا وقف أمام المرأة، ورأى شكله حسناً، له عينان، وله أنف طبيعي، وله حجم معتدل، شكله تام، كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خُلُقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي))

[أحمد عن عائشة]

لأنه قيل:

جمال الجسم مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوس

أحد الناس كان أنيقاً جداً، جميل الصورة، تكلم كلاماً بديعاً، فقال له أحدهم: إما أن تتكلم وفق هندامك، وإما أن ترتدي ثياباً وفق كلامك.

أحاديث في وصف النبي عليه الصلاة والسلام:

إخواننا الكرام، تجلس مع مؤمن والله لا أبالغ 30 عاماً، تصحب مؤمناً 30 عاماً لا تستمع منه إلى كلمة نابية، أبدأً، لسانه مضبوط.

((قلت: يا رسول الله، أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: ثكلتك أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟))

[أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم عن معاذ]

((لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه))

[أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق]

((مَنْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ))

[رواه عن أبي عليّ الفضيل بن عياض رضي الله عنه]

((وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُقْبَلِي لَهَا بِالْأَلْفِ يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفاً))

[رواه البخاري عن أبي هريرة]

كان عليه الصلاة والسلام:

((أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير))

[متفق عليه]

كل واحد منا إذا كمل الله عز وجل خلقه فعليه أن يسعى ليكمل أخلاقه.

وكان عليه الصلاة والسلام: أبيض مليح الوجه، ولا تنسوا مرة ثانية الدعاء المأثور عن النبي عليه الصلاة والسلام إذا وقف أحدكم أمام المرأة، ورأى شكله حسناً أن يقول:

((اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خُلُقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي))

[أحمد عن عائشة]

وكان عليه الصلاة والسلام مربعاً، عريض ما بين المنكبين، كث اللحية تعلوه الحمرة، بالتعبير الدارج على كل خد وردة، تعلوه حمرة، لقد رأيت في حُلّة، يقول راوي الحديث: رأيت في حُلّة ما رأيت أحسن منه.

إخواننا الكرام، الإنسان بحاجة إلى الجمال، إذا رتب بيته، نظف بيته، رتب محله التجاري، أنا لا أقول: أن تشتري أشياء غالية، لكن الجمال لا يحتاج إلى جمال، بل يحتاج إلى ذوق فقط، المسلم كما وجه النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((حسنوا لباسكم، وأصلحوا رجالكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس))

[الحاكم في المستدرک عن سهل بن الحنظلية]

كان عليه الصلاة والسلام:

((ضخم الرأس، واليدين، والقدمين، حسن الوجه، لم أر قبله ولا بعده مثله))

[رواه البخاري]

وكان عليه الصلاة والسلام:

((وجهه مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً))

[رواه مسلم عن جابر بن سمرة]

كان عليه الصلاة والسلام :

((إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر))

[متفق عليه]

لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((إذا كان الوجه الحسن رجلاً لكان رجلاً صالحاً))

وكنا نعرف ذلك، مسرور.

وكان عليه الصلاة والسلام:

((لا يضحك إلا تبسماً))

[رواه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم في المستدرک عن جابر بن سمرة]

هناك ضحك فيه قلة أدب، يضحك الإنسان، لكن كان ضحكه تبسماً، هناك شخص يقلب للوراء، وعن عائشة قالت:

((ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا حتى أرى لهواته، إنما كان يتبسم))

[أخرجه الشيخان والترمذي عن عائشة رضي الله عنها]

الإنسان أحيانا يضحك فيفتح فمه، ترى أعرق حلقة، تقول السيدة عائشة:

((ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا حتى أرى لهواته، إنما كان يتبسم))

ويقول سيدنا جابر:

((فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى الْقَمَرِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَإِذَا هُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ))

[رواه المحفوظ عن جابر بن سمرة]

الله عز وجل جميل، ويكسب المؤمن جمالا، ولو كان ملوناً، سيدنا بلال ملون، أنا متأكد أن في وجهه نوراً، والإنسان يكون لونه أحيانا فاتح جداً، واستوفى الجمال البشري، لكن فيه ذنوب ومعاصٍ وآثامٍ وخبث، فتجد في وجهه فتوراً وغبرة.

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾

(سورة عبس)

أيها الإخوة، أبو طالب وصف النبي عليه الصلاة والسلام شعراً قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يطعم اليتامى، ويمنع الأرمال من أن تُظلمن.

أيها الإخوة الكرام، الحياة الدنيا كما يقال: ساعة اجعلها طاعة، والنفس طماعة عودها القناعة، والإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، ومن أدق تعريفات الإنسان أنه زمن، أو أن أثن شيء يملكه هو الزمن، وأن الزمن رأس ماله، وأن هذا الزمن إما أن ينفق استهلاكاً، وإما أن ينفق استثماراً، فإذا طلبت العلم، وتعرفت إلى سيد الخلق، وسرت على منهجه، أنشأ الله له حق عليه أنا أخطب الشباب، المستقبل مخيف لكنك إذا كنت مع الله مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعامل الشاب المؤمن كما يعامل الشاب المتقلت

قال تعالى، دققوا في هذه الآية أيها الشباب، سمعت خيراً أنه مما يلفت النظر أن رواد المساجد في دمشق . خبر أذيع قبل يومين . من الشباب، وأنا أخطب الشباب، وريح الجنة في الشباب:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

(سورة الجاثية الآية: 21)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعامل شاب مؤمن يخاف من الله كما يعامل شاب فاسق.

((ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تائب))

[أخرجه أبو المظفر السمعاني في أماليه عن سلمان]

((إن الله تعالى يباهي بالشباب العابد الملائكة، يقول: انظروا إلى عبدي، ترك شهوته من أجلي))

[أخرجه ابن السني الديلمي في مسند الفردوس عن طلحة].

إذاً: ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي منادٍ: " يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة ".

حضور درس فقه السيرة مما يجب على كل مسلم، لماذا ؟ ليعرف عن النبي أخلاقه، ليعرف عن النبي شمائله، ليعرف عن النبي رحمته، ليعرف عن النبي تواضعه ليعرف عن النبي حكمته، ليعرف عن النبي عفته.

سيدنا جعفر لما سأله النجاشي حدثنا عن نبيكم، قال:

((أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء

الجوار حتى بعث الله إلينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه))

(أحمد عن أم سلمة)

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

- الدرس (01) : الهجرة إلى الحبشة.....1
- الدرس (02) : المفاهيم العامة للهجرة10
- الدرس (03) : تفاصيل الهجرة.....21
- الدرس (04) : لن نمكن في الأرض قبل أن نتنصر على أنفسنا.....32
- الدرس (05) : الصحبة44
- الدرس (06) : قصة الهجرة55
- الدرس (07) : أهمية قصة الهجرة للمسلم.....66
- الدرس (08) : قصة سراقه77
- الدرس (09) : قصة أم معبد و قصة حاطب بن بلتعه.....90
- الدرس (10) : قصة أم معبد97